الفصل الثاني

لمحة تاريخية عن الترجمة
APERÇU HISTORIQUE DE LA TRADUCTION

لقد كان تاريخ الترجمة موضوع العديد من الدراسات، على مستوى كل دولة، وعلى المستوى الأوربي. وقد شغل "التقليد" الفرنسي و"التقليد" الألماني حيزا كبيرا، حتى وإن كانت معظم الدراسات منشورة باللغة الإنجليزية، ففي مقابل تعدد الدراسات الخاصة والعامة، يبدو تاريخ الترجمة أكثر فأكثر جنسا كامل العضوية في علم الترجمة بتياراته ومناهجه الخاصة.

يمكن بإيجاز تمييز عدة آفاق في الدراسة التاريخية:

١-يؤرخ البعض للترجمة بوصفها ممارسة، في مقابل تاريخ الترجمة بوصفه تأملا نظريا.

٢-يستند البعض الآخر إلى حياة المترجمين وأعمالهم لعرض تاريخ الترجمة، في مقابل الذين يدرسون الكتب الوجيزة والمقدمات التي تمهد للترجمات، من أجل وصف تطور تاريخي معين.

٣-يكتب آخرون أيضا تاريخ الترجمة بربطها بسياقها الاجتماعي-السياسي، في مقابل الذين يصفونها بأنها نشاط عام تتم ممارسته عادة في كل اللغات والثقافات.

وهكذا، يقدم إدموند كاري Edmond Cary على سبيل المثال في مصنفه *الترجمة في العالم* (١٩٥٦) وقائع تتعلق بالمترجمين والترجمات على مر التاريخ. وفي المقابل، يهتم مصنف جورج شتاينر Georges Steiner المعنون *بعد بابل After Babel* اهتماما أكبر بنظريات الترجمة في مختلف العصور. وقد اقترح أندرية لوفيفر André Lefevere (١٩٧٧) مختارات من مقالات ألمانية عن الترجمة، في حين اكتفى بول هورغلان Paul Horguelin (١٩٨١) بالمجال الفرنسي، وسانتويو Santoyo بالمؤلفين الأسبان الذين كتبوا عن الترجمة.

وباختصار، يبدو "تاريخ" الترجمة اليوم بناء فكريا يرتبط ارتباطا كبيرا بالتأويل الشخصي للمؤرخ. ويميل علماء الترجمة إلى تمثل بعض الوقائع والكتابات التي اعتبرت جوهرية للترجمة على طريقتهم الخاصة، بدلا من الاكتفاء بتعداد الوقائع والشخصيات التاريخية - كما ينادي بذلك نتاج المؤرخين الرسميين historiographie - الأمر الذي يؤدي إلى إشكالية "الموضوعية" في كتابة التاريخ الخاص هذا.

وفضلا عن ذلك، يثير موضوع هذا التاريخ نفسه إشكالا. أولا، لأن هناك أشكالا متنوعة تندرج تحت عنوان "الترجمة" (الأدب المترجم، والنصوص ثنائية اللغة، والتكييف، إلخ). ثانيا، لأن تاريخ النظرية منفصل غالبا عن تاريخ الممارسة، وفضلا عن ذلك، عن تاريخ مهنة المترجم. ثالثا وأخيرا، لأن بعض المجالات مثل اللسانيات والأدب أو الحضارة تدمج الترجمة (الأعمال المترجمة) في حقل مجالها الخاص، فتحرم بذلك علماء الترجمة من قسم كبير من المادة النصية لدراستهم. وهكذا، كتبت آني بريسيه Annie Brisset (١٩٩٠) على سبيل المثال تاريخ المسرح المترجم في مقاطعة كيبك Québec الكندية. وإذا أضفنا إلى ذلك وجود دراسات مختلفة- وأحيانا متنافسة- تتعلق بتاريخ الترجمة (نظرية و/ أو ممارسة) في الدولة نفسها (على سبيل المثال فرنسا أو ألمانيا)، فإن تحديد مجال البحث التاريخي يصبح من أكثر المجالات إشكالية.

أضف إلى ذلك أن بعض المناطق الجغرافية (مثل أوروبا) وبعض العصور (مثل عصر النهضة) تتمتع بأهمية لا مثيل لها في مناطق أخرى من العالم وفي عصور مختلفة، ومن هنا تنبع أهمية دراسة معمقة لقضايا "القومية"، و"المركزية العرقية"ethnocentrisme في كتابة تاريخ الترجمة. وقد كتب جان دوليل Jean Delisle (١٩٨٧)، على سبيل المثال، تاريخ الترجمة في كندا، في حين أن شيري سيمون Sherry Simon (١٩٨٩) كتبت تاريخ الترجمة في مقاطعة كيبك فقط.

وأخيرا، لقد ناقش المختصون مسألة غاية البحث أو هدفه المنشود من خلال كتابة هذا التاريخ. وهكذا يرى لامبيرLambert (١٩٩٣) أن كتابة التاريخ تهدف إلى الإقرار بولادة مجال علمي (علم الترجمة)، بينما يعتقد دولست d'Hulst (١٩٩٤) أنها تهدف، في نهاية المطاف، إلى توحيد المجال العلمي. ويتفق غالبية المؤلفين في جميع الأحوال على أهميتها وفائدتها. يركز بيرمان Berman (١٩٨٤)، على سبيل المثال، على فائدة البحث الذي ينتجه المؤرخون الرسميون historiographique لأنه يراه ضروريا من وجهة نظر إبيستمولوجية: "إن تأسيس تاريخ الترجمة هو أول مهمة لنظرية معاصرة في الترجمة، إذ أن كل حداثة معنية بحركة استذكارية تدرك الذات، وليس بنظرة إلى الماضي" (Berman 1984: 12). ولو أحصينا إجمالي المقالات والمؤلفات التي نشرت منذ ذلك التاريخ حول الموضوع لأصبح من الواضح لنا أنها لبت النداء إلى حد كبير.

(١) الأساطير المؤسسة لعلم الترجمة

الأسطورة الأولى هي أسطورة "برج بابل"Tour de Babel. وقد ذكرت في *الإنجيل la Bible*:

"وكانَ لأهلِ الأرضِ كُلِّها لُغَةٌ واحدةٌ وكلامٌ واحدٌ. [...]وقالوا: "تعالَوا نَبْنِ لنا مدينَةً وبُرجا رأسُهُ في السَّماءِ. ونُقِمْ لنا اسماً فلا نتَشتَّتُ على وجهِ الأرضِ

كُلِّها. ونَزَلَ الرّبُّ لِيَنظُرَ المدينَةَ والبُرج اللذَينِ كانَ بَنو آدمَ يَبنونَهما، فقالَ الرّبُّ: «ها هُم شعبٌ واحدٌ، ولهُم جميعًا لُغَةٌ واحدةٌ! ما هذا الذي عَمِلوه إلاّ بِدايةً، ولن يصعُبَ علَيهم شيءٌ مِما يَنوونَ أنْ يعمَلوه! فلنَنزِلْ ونُبَلبِلْ هُناكَ لُغَتَهُم، حتى لا يفهَمَ بعضُهُم لُغَةَ بعضٍ. فشَتَّتَهُمُ الرّبُّ مِنْ هُناكَ على وجهِ الأرضِ كُلِّها، فكَفُّوا عَن بِناءِ المدينةِ. ولِهذا سُمِّيَت بابِلَ، لأنَّ الرّبَّ هُناكَ بَلبَلَ لُغَةَ النَّاسِ جميعًا، ومِنْ هُناكَ شَتَّتَهُمُ الرّبُّ على وجهِ الأرضِ كُلِّها»[1].

وهكذا، تمثل الترجمة جوابا على بلبلة اللغة، ولكن أيضا وسيلة لاستعادة وحدة الكائنات البشرية البدئية. وتشير الأسطورة البابلية إلى الأهمية التي منحت للتواصل في ما وراء اختلاف اللغات. وتدل أيضا على العلاقة الأصلية والمعقدة القائمة بين الترجمة والمقدس، وهي علاقة تندرج تحت التأمل الترجمي لعدة قرون، لاسيما أن هناك أسطورة أخرى تعزز أسطورة بابل.

الأسطورة الثانية هي *التوراة السبعينية*[2]، la Bible des Septante ، وقد ذكرها فيلوقراط اليهودي Philon le juif (حوالي ١٣ ق.م. -٥٤ م.) الذي يروي ما يلي: "بناء على أمر الفرعون بطليموس الثاني (بطليموس فيلادلفيوس) Ptolémée II Philadelphe، ترجم ٧٢ حبرا يهوديا جليلا وفاضلا خلال ٧٢ يوما نص أسفار موسى الخمسة (Pentateuque) (انظر: Ballard 1992: 31).

---

(١) النص الفرنسي الذي يورده المؤلف مقتطف من سفر التكوين، الفصل ١١، ومن ترجمة ل. سيغوند L. Segond. وأما النص العربي فهو نقل عن موقع الكلمة، والرابط هو:
http://www.elkalima.com/gna/ot/genesis/chapter11. المترجم).

(٢) أو *الترجمة السبعينية*، وهي الترجمة اليونانية المعتمدة *للعهد القديم* قبل ظهور *الفولغاتا*، أي الترجمة العامة أو الشعبية أو الشائعة. وقد صدرت *الترجمة السبعينية* في الإسكندرية أيام حكم بطليموس فيلادلفيوس ملك مصر (٢٧٧ ق.م.) على يد اثنين وسبعين حاخاما يهوديا، ولذلك سميت بالسبعينية. (المترجم).

وقد أوضح كتاب آخرون ظروف إعداد هذه "الترجمة المعجزة" (Nida 1964: 26). وتقول الأسطورة إن الفرعون اختار ستة أحبار من كل قبيلة من قبائل اليهود الاثني عشر، ووزعهم في ٣٦ مجموعة ثنائية par binômes وعزلهم عن بعضهم البعض. وقد ترجمت كل مجموعة *العهد القديم* بشكل كامل ومنفصل فكانت النتيجة معجزة بمعنى أن النسخ الست والثلاثين المنتجة كانت، حسب الأسطورة، متطابقة كليا من جميع النواحي.

لقد نوقشت ترجمة *العهد القديم* اليونانية هذه- التي أطلق عليها اسم التوراة السبعينية- مناقشة مستفيضة. ويرى البعض أنها اعتبرت عطاء إلهيا، ويرى البعض الآخر أنها "خطأ خطير". وهذا مصدر الاعتراضات الأولية القوية على مستوى الأفكار الترجمية.

(٢) علم الترجمة وتاريخها

يتفق جميع المهتمين بعلم الترجمة على نقطة واحدة على الأقل: يعود تاريخ الترجمة إلى غابر الأزمان. ومع ذلك، غالبا ما تكون الميزات الرئيسة للاعتبارات المتعلقة بتاريخ الترجمة "متلاحقة، ودقيقة أو متفرقة على شكل مراجع متناثرة" (Ballard 1992:11). فالانشغال التاريخي هذا غائب حتى لدى عدد لا بأس به من علماء الترجمة؛ إذ إنهم لا يهتمون به إلا بطريقة عرضية. وتتمحور أعمالهم بشكل شبه حصري حول جوانب الترجمة النظرية واللسانية. ومع ذلك، يعتبر كثيرون أن النظرة التاريخية شرط أولي للتنظير، لأن الإشكاليات الرئيسة التي يتم تناولها تطورت تطورا قليلا عبر القرون، فالأسئلة الأساسية التي يطرحها المترجمون والمفكرون القدماء نجدها بشكل عام في نظريات الترجمة المعاصرة.

يقترح شتاينر Steneir في كتابه الموسوم بعنوان *بعد بابل After Babel* تقسيم تاريخ التأمل في الترجمة إلى أربع مراحل متمايزة، "مع ذلك ليست الخطوط الفاصلة بينها مطلقة" (Steneir, 1975: 224).

تبدأ **المرحلة الأولى** في عام ٤٦ ق.م. مع "مبدأ شيشرون Cicéron الشهير الذي ينادي بألا نترجم ترجمة حرفية" "verbum pro verbo" ، وتنتهي حوالي عام ١٨١٣م مع "مقالة فريدريك شلايرماشر Friedrich Schleiermacher الجديرة بالملاحظة". تتميز هذه المرحلة جوهريا بمقاربة تجريبية للترجمة، وبتركيز على دور المترجم الحاسم.

المرحلة الثانية هي النظرية التأويلية للترجمة، التي كان شلايرماشر المبادر إليها، والتي تبناها فيما بعد كل من شليجل Schlegel وهامبولت Humboldt. ويتعلق الأمر في هذه المرحلة بمقاربة يسيطر عليها الطابع الفلسفي، وتمتد حتى فاليري لاربو Valéry Larbaud (*تحت رعاية القديس جيروم Sous l'invocation de saint Jérôme*, 1946).

تبدأ **المرحلة الثالثة** في نهاية الأربعينيات مع انطلاقة الأبحاث حول الترجمة الآلية TA. وتقوم على مقاربة شكلية للترجمة، وتستخدم اللسانيات ونظريات المعلومات على نطاق واسع. ولكن النتائج المخيبة للآمال أدت إلى تعثر نظرية الترجمة.

وأما **المرحلة الرابعة** فقد بدأت في نهاية الستينيات، وتميزت بتجديد التساؤلات التأويلية المتعلقة بالترجمة التحريرية والترجمة الشفهية. وكانت "دراسة نظرية الترجمة وممارستها خلال هذه المرحلة تقف عند ملتقى مجالات علمية متأصلة وحديثة [...] بهدف توضيح فعل الترجمة وآليات "الحياة بين اللغات" (Steiner 1975: 226).

لقد تم انتقاد مراحل شتاينر وإكمالها على الرغم من أهميتها. يتساءل بعض علماء الترجمة حول اختلاف طول هذه المراحل التي تغطي الأولى منها ١٨ قرنا، في حين أن المرحلة الثانية تشمل قرنا واحدا، وأن كلا من المرحلتين الأخيرتين يتعلق بحوالي ثلاثين عاما فقط.

وقد قام كيلي (Kelly 1979: 224) بالرد على هذه الانتقادات، وكرر تصنيف شتاينر وقسم أطول مرحلة إلى خمسة مراحل: ما قبل المرحلة الكلاسيكية، والعصور الوسطى، والمرحلة الكلاسيكية، وعصر النهضة، والتنوير.

ويفضل علماء ترجمة آخرون على التسلسل الزمني تقديما موضوعاتيا لتاريخ الترجمة.

يصنف أندريه لوفيفر André Lefevere في مختاراته (١٩٩٢م) النصوص التاريخية الرئيسة حسب الموضوع الذي تعالجه:

١- دور الأيديولوجيا في إنتاج الترجمات.
٢- تأثير رعاية الآداب والفنون.
٣- القيود الشعرية.
٤- عالم الخطاب.
٥- تطور اللغة والتعليم.
٦- تقنيات الترجمة.

وتقوم فكرة "القيد" في هذا التصنيف الذي يركز على الترجمة الأدبية بدور جوهري.

ويتصور علماء ترجمة آخرون تاريخ الترجمة هذا من وجهة نظر الموضوع: وهكذا يلاحظ ميشونيك (Meschonnic 1973: 322) تطورا عاما من ثلاث مراحل: "انتقل تاريخ الترجمة الأوربي من الوحدة-الكلمة إلى الوحدة-المجموعة ثم إلى الوحدة - النص، أي من الحرفية اللاهوتية إلى الشرح الثقافي ثم إلى الدقة العلمية". ويرى ميشونيك أن الترجمة انتقلت تدريجيا من صنعة نظرية إلى مواقف أكثر علمية، ولكنه يأسف لتحفظ الباحثين الفرنسيين الدائم على علم الترجمة: "إن الاستخفاف الثقافي

بالترجمة يميز أيضا الأدباء في فرنسا، على الرغم من الإسهامات العالمية الجديدة في نظريات الترجمة".

إنه لمن الصعب، إزاء تعدد الآراء ووجهات النظر، متابعة عالم ترجمة واحد. وفضلا عن ذلك، قد يكون من العبث، بعد كل ما قيل في الترجمة وكتب حولها، إعادة كتابة هذا التاريخ في إطار هذا الكتاب. ويكفي أن نتصفح سريعا قائمة مراجع المؤلفات الرئيسة حول الترجمة منذ العصور القديمة وحتى أيامنا هذه لنكتشف أنه لا معنى لمقاربة تاريخية إن لم تهتم بعرض تطور الأفكار الترجمية ومعالجتها على مر العصور.

(٣) تاريخ موجز للأفكار الترجمية

يتكون تاريخ الترجمة في مجمله من تعايش قيود يبدو أنها تثري بعضها البعض بالتبادل، إذ تتميز كل مرحلة من المراحل الترجمية "بمجموعة من الانتقادات والمقترحات المعيارية التي تنكرها على الفور معارضة ماثلة دائما" (Brower 1959: 10). ويتحقق ذلك على وجه الخصوص بدءا من القرن السادس عشر، وهي مرحلة شهدت تطور التأمل في الترجمة تطورا واضحا.

تتميز التأملات الأولى بالتجريبية، ولكنها تتمحور حول بعض التقابلات الرئيسة: إمكانية الترجمة مقابل استحالة الترجمة، و"الألفاظ" مقابل "المقاصد"، و"الأمانة" مقابل "الخيانة"، ...إلخ، بيد أن هذه الأزواج من الأضداد تعكس جهود مفهمة كامنة ينبغي التذكير بها.

والحقيقة أن تاريخ الأفكار الترجمية هو تاريخ تعارض متجدد على الدوام: "تعاود الثنائية نفسها الظهور، مهما كان الكتاب الوجيز الذي نستوضحه": ثنائية الألفاظ والمقاصد، والكلمة والمعنى (Steiner 1975: 245). وتسير معظم الكتابات في

هـذا الاتجـاه، ومـن النـادر أن يخـالف الكتـاب هـذه القاعـدة. تلاحـظ باسـنيت (Bassnett 1980: 39) أن بعض الكتابات النظرية خاصة بكل العصور: "إن التمييز بين الترجمة الحرفية وترجمة "المعنى بالمعنى" الذي تأسس منذ العصر الروماني ما يزال النقطة الأساسية في النقاش الدائر حتى أيامنا هذه".

(٣,١) النظرية في مقابل الممارسة

يواكب التقابل بين النظرية والممارسة تاريخ الترجمة، ويستمر اليوم أيضا في تقسيم المدرسين والمترجمين المهنيين، فهذا التمييز الذي ما ينفك يتأكد على مر التاريخ ضروري لفهم عدد كبير من المناقشات والإشكاليات التي تُطرح في علم الترجمة. وهي تحيل إلى تقابلات لا تقل اختلافا عن مجرد وملموس، وأساسي وتطبيقي، وغير مفيد ومفيد.

وحسب هذه الخطوط الفاصلة، نصادف مترجمين ينكرون فائدة أية نظرية للترجمة، معلنين انتماءهم لتجريبية جذرية يعتبرونها مفيدة. ونصادف أيضا منظرين يفسرون على توالي الكتب الوجيزة تيه بعض الممارسين، ويعملون على البرهنة على فضائل تأمل نقدي وعقلاني. فلكلٍّ أسبابه التي لا يدركها العقل أحيانا، ولكن المقاربتين مقبولتان، لأنهما ليستا متعارضتين إلا في الظاهر.

إن الفحص المعمق يؤكد لنا أمرا واحدا: أن التطور المنتظم والمدهش للنشاطات الترجمية لا يقابله التطور نفسه على مستوى الأبحاث النظرية: "إن توسع النشاط الترجمي، أفقيا ورأسيا، الذي نشهده على المستوى العملي، لا يصاحبه تطور مواز على المستوى النظري" (Steiner 1975: 82).

وتشغل ممارسة الترجمة إجمالا، على الرغم من كم الدراسات المنشورة في كل اللغات، مكانة أكثر أهمية من الاعتبارات النظرية. إننا نترجم أكثر بكثير من اهتمامنا بالمفهمة، مؤكدين بذلك الاختلال القديم بين النظرية والتطبيق. يوضح فان هوف

(Van Hoof: 1991) في دراسته عن تاريخ الترجمة في الغرب هذا الاختلال مركزا على الطابع العابر والدقيق للاعتبارات النظرية . ولهذا لا أهمية للمحة تاريخية إن لم تعكف على عرض الأفكار التي أثرت في التأمل في الترجمة، مثل إمكانية الترجمة واستحالتها.

(٣,٢) إمكانية الترجمة في مقابل استحالتها

لقد طرحت إمكانية الترجمة نفسها على الفور على النصوص الدينية. وتوضح ردود الفعل المتناقضة على ترجمة *العهد القديم* مفهومين للترجمة، متناقضين تناقضا جذريا، يرى البعض أن الترجمة تساعد على نقل الرسالة الدينية Révélation واستمرارها، في حين يرى آخرون أنها تشكل فعلا مقززا وتجديفيا. ينظر إلى الترجمة من جهة على أنها معين للبشر للوصول إلى أسرار النصوص المقدسة ؛ ومن جهة أخرى على أنها انتهاك ومس بالكلام الإلهي الذي لا يمكن إلا أن تحط من قدره .

لقد قام نايدا (Nida 1964: 9) بالتركيز على المكانة الرئيسة التي تشغلها الدراسات التوراتية في تاريخ الترجمة في الغرب: "ليس لأي نمط آخر من الترجمة تاريخ مماثل، ولا يستوجب عددا مماثلا من اللغات المختلفة (...) ولا يشمل نصوصا بمثل هذا الاختلاف، ولا يغطي مناطق ثقافية بمثل هذا التميز" .

ولذلك، يصعب فهم تطور الترجمة من دون اعتبار الجاذبية الكبيرة التي مارستها النصوص المقدسة على المترجمين من العصور القديمة حتى أيامنا هذه، فإضافة إلى أن ترجمة *الكتاب المقدس* كانت وسيلة ناجعة للتنصير، فإن العلاقة بالنص المقدس أثرت تأثيرا عميقا في ممارسة النشاط الترجمي وتصوره: "ينبغي أن نشير إلى أن تاريخ الأديان بعامة، وتاريخ النصرانية بخاصة، يشكل لدى الغرب مصدرا ثمينا لدراسة الترجمة. لقد أثارت على الفور حاجات طائفة نصرانية، يزداد عددها بسرعة،

مشكلة ترجمة *العهد القديم* من اللغة اللاتينية إلى لغات أخرى: السريانية أولا، ثم القبطية والأثيوبية، والجورجية، والأرمينية، والقوطية. ومن المؤكد أن الترجمة الدينية سبقت الترجمة الأدبية والترجمة الإدارية" (Van Hoof 1991: 13).

"لقد انتشرت ترجمات *العهد القديم* اليونانية بدءا من القرن الثاني قبل الميلاد. وبقيت اليونانية لغة النصرانية الوحيدة حتى منتصف القرن الثالث الميلادي، ثم حلت محلها اللغة اللاتينية مع ازدهار الإمبراطورية الرومانية. وقد اعتمدت الترجمة اللاتينية الأولى *للكتاب المقدس Vetus Latina* على نص يوناني لنشر كلام الله بين الشعوب اللاتينية" (Van Hoof 1991: 14).

وقد ظهرت في تلك الفترة التساؤلات الأولى المتعلقة بالترجمة؛ فهناك من جهة الذين يعتبرون أن الترجمة هبة وإلهام يساعد على ترجمة كلام الله، ومن جهة أخرى الذين يرون أنه يستحيل نقل سر كلام الله إلى لغة البشر، ويعتبرون، بالنتيجة أن الترجمة تدنيس، وأن المترجم كافر. وقد تمخض عن هذا الخيار بين الأمرين إشكالية الاعتراض المسبق objection préjudicielle الذي طبع تاريخ الترجمة حتى العصر الحديث (Ricoeur 2004).

(٣,٣) الفن في مقابل العلم

الترجمة "علم" أم "فن"؟ لقد شغل هذا السؤال المترجمين والمنظرين للترجمة وقتا طويلا. وإنه لمن الواضح أن هذا السؤال مريب لأن الطابع العلمي للأعمال في الترجمة لا يشير بدقة إلى نمط المنهج نفسه لدى العلميين، فالتشابه بين منهج الفيزيائي ومنهج المترجم لا يصمد أمام تفحص الوقائع، ويبدو في نهاية المطاف، مقارنة تعسفية. ولكن ذلك لم يمنع عددا كبيرا من المؤلفين من التوقف عند هذا السؤال، وتقديم ملخصات ارتجالية أحيانا، وافتراضات غير مثبتة.

الاعتراض المسبق

تشير "إشكالية الاعتراض المسبق" إلى مشكلة الاستحالة النظرية للترجمة (Ladmiral 1994). وإن كان المدافعون عن الترجمة يتذرعون بأسباب براغماتية، فإن المعارضين يعترضون بطريقة جوهرية بأنه يستحيل تحقيق الترجمة في المطلق، وأنها تنطوي عمليا على خسارة في النص وفي جوهره.

ولكن هذه الإشكالية لم تعد فعلية اليوم، بالقدر الذي تفنده فيها الممارسة اليومية، ولكنها تستمر مع ذلك في المجال الديني. والحقيقة أن النقاش بشأن استحالة الترجمة تعقد نتيجة اعتقاد البعض بقداسة لغة النص الديني الذي نزلت به الرسالة الدينية (اللغة العبرية، واللغة العربية)، في حين أن آخرين يتصورون اللغات مجرد وسيط قابل للترجمة. وباختصار، يقدم مجال النصوص الدينية الحساس على وجه الخصوص عددا من الأمثلة المتعلقة بـ"الترجمة –الرسالة"، وبمقابلها، أي "الترجمة-التجديف".

وحتى لو كانت *التوراة* بعد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (١٩٤٨) تشكل جزءا من أكثر النصوص ترجمة في العالم، فإن الأمر لم يكن هكذا دائما: لقد كان مصير عدد كبير من المترجمين المحرقة؛ لأنههم تجرؤوا على ترجمة النص المقدس، وتطلب الأمر قرونا من تطور العقليات لرؤية ظهور الترجمات التوراتية الأولى، فالموقف الذي دافع عنه اللاهوتي الشهير من جامعة أكسفورد جون ويكليف John Wyclif (١٨٨٤-١٣٢٤م)[٣]، صاحب أول ترجمة إنجليزية كاملة *للتوراة*، لم

(٣) جون ويكليف (١٣٢٨- ١٣٨٤م)، رجل دين ومترجم ومصلح مسيحي إنجليزي. عمل مستشاراً لاهوتياً لملك إنجلترا، هاجم سلطة البابا المطلقة. وكان أعظم إسهاماته ترجمة *الكتاب المقدس* إلى اللغة الإنجليزية الدارجة. ثارت الكنيسة عليه بسبب ذلك ومنعت نشر الكتاب لاحقاً. آمن بأن سلطة *الكتاب المقدس* هي فوق كل سلطة أخرى. أدين بعد موته بالهرطقة، وأحرقت كتبه وأخرجت عظامه من القبر وأحرقت بأمر من البابا. ويعتبر ويكليف مع جون هس John Huss من أبرز المصلحين قبل الإصلاح البروتستانتي.

يكن دائما محط تقدير لدى الكنيسة. ويتمثل فضل ويكليف على وجه الخصوص في أن اللغة الإنجليزية لم تكن أبدا مستخدمة في الكتابة (Van Hoof 1991:121).

ويبقى أن النقاش الدائر حول الاعتراض المسبق متأصل في عدد من مناطق العالم، لاسيما بشأن ترجمة معاني *القرآن الكريم* لدى المسلمين: "إن الترجمة، اليوم أيضا، ليست النص، وإنما تفسيره" (Ballard 1992: 65).

وينتقد برنييه (Pergnier 1978: 480) مسألة الاعتراض المسبق بمناقشة المفاهيم التي يقوم عليها: "غالبا ما أغرتنا فكرة تكرار القول المأثور: إن الترجمة خيانة، وقول: إن كل ترجمة في نهاية المطاف مستحيلة؛ لأن كل نص مترجم يحمل طابع (كثافة) ترجمته. وهذا ليس مع ذلك صحيحا بالقدر الذي يمكن فيه القول بالمثل: إن كل تواصل باللغة مستحيل؛ لأن هذا التواصل ينطوي على جانب من الكثافة، ومن الغموض الذي يتعذر تبسيطه، ومن سوء الفهم أو الصمت [...] وليس بوسعنا إذن أن نلوم الترجمة على عدم تحقيق هدف الشفافية الشاملة التي تساهم مع ذلك بمفردها في تأسيسها".

وهكذا، يؤكد فيني وداربلنت Vinay et Darbelnet في مصنفهما الموسوم بعنوان *الأسلوبية المقارنة للفرنسية والإنجليزية* تمسكهما بمفهوم "علمي" للترجمة، ردا على المقاربات "الفنية" و"الانطباعية". ولكنهما يقران بهدف التوفيق بين المفهومين أن "الترجمة" تصبح فنا ما أن يتم استيعاب تقنياتها (Vinay et Darbelnet: 1958:24). ويبذل المؤلفان من وجهة النظر هذه جهدا كبيرا لتحقيق شروط العلمية فيوضحان سبع طرق للترجمة من المفروض أن تبرهن على التقنيات المذكورة.

وفضلا عن ذلك، يمهد المؤلفان لتحليلاتهما بمعجم للمصطلحات التقنية يهدف إلى البرهنة على صرامة منهجهما فيؤسسانه على مصطلح دقيق ومعرف مسبقا منذ

البداية. زد على ذلك أن مصطلحهما يبدو الخط الفاصل الذي يميز بين المقاربات "العلمية" و"الفنية" للترجمة.

وأخيرا، يمكن تلمس هذا المطمح العلمي في سعي المؤلفين لربط دراستهما بالمجال العلمي. يرى المؤلفان أن الترجمة قبل كل شيء تطبيق عملي وأسلوبية مقارنة"، و"مساعدة للسانيات"، إذ تقوم فكرتهما على ربط الترجمة بعلم قائم (اللسانيات) للإفادة من إطاره ومناهجه المثبتة.

نجد الرأي نفسه لدى منظر آخر هو جورج مونان (Mounin 1976: 16) الذي يدافع عن الموقف نفسه، مرتكزا على مقارنة قابلة للنقاش على أقل تقدير: "يمكن القول، إن تمسكنا بذلك أن الترجمة ، مثل الطب، فن ولكنها فن يقوم على علم".

ويطالب مونان دائما، على غرار فيني وداربلنت "بحق الدراسة العلمية للترجمة في أن تصبح فرعا من اللسانيات" (Mounin 1976: 273).

(٣,٤) الكاتب في مقابل المترجم

يشهد العصر الحديث انفصال شخصيتين رئيسيتين انفصالا واضحا، هما شخصية الكاتب وشخصية المترجم. وحتى لو لم يكن هذا التوزيع للأدوار بهذه الصورة في جميع العصور لأنه كان دائما هناك مترجمون كتاب وكتاب مترجمون، فإن التقابل بين الشخصيتين ازداد على مر القرون لأسباب عديدة.

يشرح كاري (Cary 1963:21) بوضوح عناصر المشكلة: "لقد وضع المنظرون بطيبة خاطر المترجم في مواجهة الكاتب باعتباره منافسا تارة وخادما تارة أخرى. وأدرك عدد قليل منهم حد المعادلة المكمل، ألا وهو العلاقة الموجودة بين المترجم وقرائه".

وهكذا لجأ كاري إلى حد ثالث، أي القارئ، للخروج من الثنائية البالية. ويقدم مثالا على ذلك جان أميو Jean Amyot (١٥١٣-١٥٩٣)، وهو أحد أفضل المترجمين الفرنسيين في عصر النهضة. ويشرح كاري نجاحه بالقول: "لقد قدم أعمالا ممتعة،

ونابضة بالحياة، ودائمة لأنه ترجم وهو يفكر في جمهوره أكثر من تفكيره في الكاتب" (Cary 1963:21).

لقد كان فريدرك شلايرماشر Friedrich Scleirmacher (١٧٦٧-١٨٣٤) في ألمانيا أول من تناول إشكالية الترجمة من زاوية التقابل بين الكاتب والقارئ. يرى شلايرماشر أن هناك فقط "منهجين رئيسين في الترجمة الحقيقية: جذب الكاتب نحو القارئ أو توجيه القارئ نحو الكاتب". وقد تكرر هذا التمييز كثيرا وتطور لاحقا في إطار التقليد الترجمي الألماني.

لقد شغلت المسألة نفسها المفكرين في بريطانيا في العصر الفكتوري التي ترجمت أعمال العصور القديمة إلى الإنجليزية: كيف نحكم على جودة ترجمة معينة؟ هل ينبغي نقل المؤلفات مثلما هي أم تكييفها مع ذوق الجمهور؟ يعتبر ماتيو أرنولد Matthew Arnold في كتابه *حول ترجمة هوميروس On translating Homer* أنه يستحيل علينا معرفة، وبالأولى، إعادة إحداث تأثير النص الأصل اليوناني على قراء ذلك العصر، ولهذا السبب يقترح من أجل تقويم نجاح ترجمة معينة اللجوء إلى حكم جمهور مثقف".

ونجد رأيا مشابها لدى فرانسيس نيومان Francis Newman الذي يرى في *ترجمة أعمال هوميروس بين النظرية والتطبيق*(٤) أن تقدير الجمهور الواسع هو المعيار للحكم على نجاح ترجمة معينة، ويرى بالارد Ballard أن هذين المؤلفين (أرنولد ونيومان) مختلفان، إذ أن كلا منهما يكرر جزءا من المبادئ الموروثة عن المدرسة الألمانية (Ballard 1992: 245).

وأما إدوارد فيتزجيرالد Edward Fitzgerald (١٨٠٩-١٨٨٣) في تكييفه القصائد الفارسية فيؤكد أنه ينبغي على المترجم أن يُؤمّن خلود العمل، حتى وإن عانى التشابه

---

(٤) *Homeric translations in Theory and Practice*. المترجم).

مع الأصل من جراء ذلك. وهو يحاكي في ذلك رأيا يشترك فيه عدة كتاب مثل توماس كارليل Thomas Carlyle (١٧٩٥-١٨٨١) وغابرييل روستي Gabriel Rossetti (١٨٢٨-١٨٨٢).

(٣,٥) الأصلي في مقابل التقليد

إن مفهومي "الأصلي" و"التقليد" نسبيان وتطوريان كليا رغم وضوحهما الظاهر: إنهما يرتبطان بالسياق المعتبر، وبالعصر المعني. وكان ينبغي انتظار القرن العشرين للحصول على تعريف واضح ومؤكد. وإن إدراك هذين المفهومين يرتبط اليوم أيضا بالجمهور وبالدول. ولنفكر فقط في الصعوبات التي يصادفها الكتّاب والمبدعون الغربيون لمراعاة حق الملكية الفكرية في بعض مناطق العالم.

دور المترجم حسب شلايرماشر

"ما الدروب التي ينبغي أن يسلكها المترجم الحقيقي الذي يريد التقريب فعليا بين الكاتب الأصل وقارئه المنفصلين إلى هذا الحد، وتسهيل فهم الكاتب على القارئ، والتمتع بقراءته بشكل صحيح وكامل من دون إجباره على الابتعاد عن دائرة لغته الأم؟ إنني أرى أن هناك دربين فقط: إما أن يدع المترجم الكاتب وشأنه قدر المستطاع ويجعل القارئ يذهب للقائه، وإما أن يدع الكاتب القارئ وشأنه قدر المستطاع ويجعل الكاتب يذهب للقائه، فالدربان مختلفان اختلافا كليا لدرجة أنه يمكن سلوك أحدهما فقط بأكبر قدر من الصرامة، لأن كل جمع بينهما سوف يؤدي إلى نتيجة غير مرضية أبدا، ولأنه يُخشى أن يفشل اللقاء بين الكاتب والقارئ فشلا كليا [...] يبذل المترجم في الحالة الأولى جهدا ليعوض من خلال عمله معرفة اللغة الأصل التي تنقص القارئ. إنه يحاول أن ينقل إلى قرائه الصورة نفسها، والانطباع ذاته عن العمل الذي حصل عليه بمعرفته اللغة الأصل، فيجعلهم يتحركون بالنتيجة

باتجاه المكان الذي يشغله، والذي يُعد غريبا بالنسبة إليهم بالمعنى الدقيق. وإن كانت الترجمة تهدف، على سبيل المثال، إلى جعل كاتب لاتيني يتكلم ويكتب إلى الألمان كما لو كان نفسه ألمانيا، فإنها هذه المرة لا تحرك فقط الكاتب باتجاه مكان المترجم، ولكنها أيضا تضعه مباشرة في عالم القراء الألمان، وتجعله مشابها لهم؛ وتلك هي على وجه التحديد الحالة الثانية" (شلايرماشر Scleirmacher الذي يستشهد به بيرمان في Berman 1995: 299).

كان الوضع بوجه آخر أكثر تعقيدا في العصور الوسطى. يوضح بالار (Ballard 1992:63) أن "مجرد تكرار قول" حكاية باللغة الإنجليزية سبق سردها بلغة أخرى كان يعتبر غالبا في القرنين السابع والثامن عملية تأليف أصلي.

كانت "النصوص الأصلية" طيلة العصور الوسطى تعتبر مصدر إلهام مجاني كليا غالبا ما ينصح بتقليدها. وكان يصعب أيضا تمييز الترجمة من الكتابة بالمعنى الدقيق، لأن النشاطين (الترجمة والكتابة) يمارسهما الأشخاص أنفسهم. وقد حصل الفصل بين "المؤلف" و"المترجم" فيما بعد مع مأسسة وضع الكاتب وتهميش المترجم.

ولكن مفهوم "النص الأصلي" نفسه بقي غامضا على وجه الخصوص حتى العصر الحديث. وكان من المألوف إنجاز الكتب المنشورة انطلاقا من ترجمة، بل من ترجمة ترجمة أخرى. وهكذا يوضح سافوري (Savory 1957: 38) أنه "عندما كان كاتب من القرن الثاني عشر يحيل إلى كاتب آخر مثل أرسطو Aristote، فيمكن أن يكون في ذهنه الترجمة اللاتينية للترجمة العربية أو أيضا الترجمة السريانية انطلاقا من أعمال أرسطو باليونانية".

لقد برز مفهوم النص الأصلي تدريجيا في التاريخ: كان المترجمون في طليطلة في القرن الثاني عشر أول من أكد ضرورة الترجمة مباشرة من الأصلي، الذي كان ينبغي

التحقق منه أحيانا انطلاقا من عدة مصادر ومخطوطات، وفق شروط صارمة. ويركز أيضا جون بورفي John Purvey حوالي عام ١٣٩٥م على ضرورة تحقيق نص مصدر، وأصلي، وصحيح، قبل بدء الترجمة (Bassnett 1980 : 47).

ويُذكّر فان هوف (Van Hoof 1991: 21) بتعقد الوضع وصعوبات العمل في العصور الوسطى: "لم تبدأ النسخ المقلدة للأصل اليوناني بالوصول إلى طليطلة إلا حوالي عام ١٢٠٠م". وهكذا لم يُترجم أرسطو مباشرة من اليونانية إلى اللاتينية إلا في القرن الثالث عشر. وكان المترجم، مثل جيرار دو كريمون Gérard de Crémone (١١١٤-١١٨٧)، يترجم المؤلفات اليونانية اعتمادا على ترجماتها العربية.

وقد طبق إراسموس Erasme (١٤٦٦-١٥٣٦) في بداية القرن السادس عشر "مبدأ إعادة ترجمة النصوص الأصلية"، ولكنه كان مضطرا إلى مقارنة المخطوطات اليونانية مع ترجماتها اللاتينية، ومقابلتها مع التأويلات اللاهوتية، ليتمكن من إعادة تكوين "النص الأصلي" الذي يريد ترجمته.

إن ترجمة إراسموس *العهد الجديد*، التي صدرت في عام ١٥٠٥م، موجهة على وجه الخصوص إلى العلماء. ورغم أنه يوصي، بالتوازي مع الترجمة، بقراءة *الفولغاتا La Vulgate* (النص اللاتيني المرجعي)، فإنه يدافع بقوة عن ترجمة *التوراة* إلى لغة عامة الشعب: "لا أوافق أبدا الذين يريدون منع العامة من قراءة *الكتاب المقدس* المترجم إلى اللغات العامية" (انظر: Ballard 1992: 139).

ويوضح لوثر Luther (١٤٨٣-١٥٤٦) على صعيد آخر، وهو أول من ترجم *الكتاب المقدس* (١٥٢١) في ألمانيا، أن ترجمته *العهد الجديد* سرقت منه، وأن الكنيسة منعت نشرها، ولكن أعيد نسخها حرفيا وبيعها باسم مترجم آخر. وهكذا لم يكن مفهوم "النص الأصلي" هو الإشكالية الوحيدة، إذ أن مفهوم ملكية المترجم الفكرية كان غائبا أيضا.

(٣,٦) الترجمة في مقابل المحاكاة

يمتدح دوبليه Du Bellay "الإبداع، والابتكار" في كتابه دفاعا *عن اللغة الفرنسية وتوضيحا لها* (١٥٤٩)، ويوجه نقدا لاذعا للمترجمين الذين تنقصهم "الإبداعية"، ولهذا فإنه يفضل الأعمال الأصلية على ترجماتهم.

ومع ذلك، يعبر جاك أميو Jacques Amyot، وهو أحد المترجمين الفرنسيين الأكثر إبداعا في الفترة نفسها، يعبر عن اهتمام جمالي فيقول: "إن واجب المترجم ليس فقط نقل حكمة الكاتب بأمانة، وإنما أيضا محاكاة شكل أسلوبه وطريقته في الكلام" (Cary 1963: 17).

ويشرح فان هوف (Van Hoof 1991: 36) هذا التوجه الجديد للكتابة الذي تأكد في النصف الثاني من القرن السادس عشر: ينتقل الكتاب في الحقيقة من الترجمة إلى الشرح بلا قيد ولا شرط، متمسكين بمبدأ المحاكاة الأرسطي. فلم تعد الترجمة منذئذ كافية: ينبغي محاكاة الأصل لأن المحاكاة هي مبدأ الفن نفسه حسب أرسطو.

ويدافع بيير- دانييل هوييه Pierre-Daniel Huet في كتابه *عن التأويل* (١٦٦١) عن الحرفية بوصفها مطلقا فنيا، ويروج لصورة المترجم المحاكي الفعلي. ويرى "أن أفضل نموذج في الترجمة هو نموذج المترجم الذي يلتصق التصاقا وثيقا جدا بفكر الكاتب، ثم بالكلمات نفسها إن كانت الإمكانيات التي توفرها اللغتان تسمحان بذلك، وأخيرا عندما يقلد الأسلوب الشخصي للكاتب ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وينكب فقط على تقديمه بأمانة، من دون أي حذف أو أية إضافة، وكاملا ومحاكيا له ما أمكن من جميع النواحي" (Kelly 1979: 256).

ويعترض هوييه على "الجميلات الخائنات" التي راجت في عصره، وينتقد خيارات بيرو دابلانكور Perot d'Ablancourt (١٦٠٦-١٦٦٤) بسبب اختلاقيته المفرطة. ويرى أن الأمر لا يتعلق بجودة الكتابة بقدر ما يتعلق بجودة الترجمة. وهكذا نشهد

بدايات وعي بالفرق بين الكاتب والمترجم: يقف الأول إلى جانب اللغة الأم فيما يقف الثاني إلى جانب اللغة الأجنبية. وقد أفضت نواة هذا التمييز إلى الاعتبارات الأدبية في القرون اللاحقة المتعلقة بواجبات المترجم الأخلاقية تجاه قرائه.

لقد اختلفت صورتا الكاتب والمترجم في العقول اختلافا واضحا بدءا من القرن الثامن عشر: "لقد انتهت مهمة الترجمة المُحضّرة. وتحرر العقل من وصاية العصور القديمة، والأدب من وصاية الترجمة. ويبقى علينا في نظر العقلانيين أن نتقدم، وأن نبدع أكثر مما نترجم (Kelly 1979: 58).

إن المنطق التقدمي للعصر يعلي من شأن الكتابة بوصفها إثارة للإبداعية، ويزيح الترجمة إلى مرتبة ثانوية، باعتبارها نشاطا من الدرجة الثانية. وفضلا عن ذلك، سرعان ما أصبح هذا النشاط أحد الأجناس الأدبية الثانوية، وعرضة للسخرية أحيانا، وللنقد غالبا.

يقدم مونتسكيو Montesquieu في *رسائل فارسية* (١٧١٩) شخصيتين تعبران، فيما بين السطور، عن الصورة التي تنتقص من قيمة الترجمة لدى معاصريه:

"- لدي خبر مهم أنبئكم به، وهو أنني قدمت مؤخرا عملي الموسوم بعنوان *هوراس* Horace للجمهور.

- وكيف ذلك؟ إنه موجود منذ ألفي عام؟

- إنكم لا تفهمونني أبدا، إنها ترجمة لهذا الكاتب القديم قمت بها مؤخرا: إنني أعمل بالترجمة منذ عشرين عاما.

- عجبا! إنك لا تفكر منذ عشرين عاما!".

إن الطابع اللاذع للإجابة الأخيرة يخبرنا بكثير من الأشياء عن صورة الترجمة في عصر التنوير. ويتمثل السبب الرئيس في تشبيه الترجمة بالمحاكاة الحرفية، وفي اعتبار الكتابة مرادفا للاختلاقية والإبداعية.

المحاكاة Imitation أو التقليد Mimèsis

المحاكاة مفهوم أساسي لدى أرسطو الذي يتكلم في *فن الشعر* على التقليد mimèsis. ويستخدم أرسطو الكلمة لوصف طريقة تمثيل الواقع باللغة، ويميز نمطين من التقليد: تقليد الطبيعة وأسلبتهاstylisation . ويقترح أرسطو أيضا ثلاث طرق لتقليد الأشياء: كما هي، وكما تقال، وكما ينبغي أن تكون.

استخدم هذا المفهوم الأرسطي فيما بعد عدة كتاب للإشارة إلى أنماط تقليد مختلفة ومتنوعة. وهكذا تم تحليل الترجمة لفترة طويلة نسبة إلى نموذج المحاكاة، أي باعتبارها مجرد محاكاة للأصل. فحسب التمييز الأرسطي الثلاثي، ناقش كتّاب العصور الوسطى مطولا طبيعة التقليد الترجمي: هل ينبغي تقليد العمل على علاته، أم كما يقال، أم كما ينبغي أن يكون؟ وقد اختلفت الإجابة حسب العصور والتيارات الفكرية، وتراوحت بين أكثر أشكال التقليد حرفية في إطار الترجمة الأدبية وأكثر أشكال إعادة الكتابة بتصرف في إطار "الجميلات الخائنات".

يركز دالامبير D'Alembert (١٧١٧-١٧٨٣) في *ملاحظات على فن الترجمة بعامة* (١٧٥٩) على حقيقة أن أساس الترجمة محاكاة، وإن اعترف بأنه ينبغي أحيانا اشتقاق مستحدثات وعبارات جديدة للحصول على أفضل ترجمة.

يعكس دالامبير، مثل معاصريه، وجهات نظر القس باتو Batteux (١٧١٣-١٧٨٠) في *دروس في الفنون الجميلة* (١٧٤٨) التي كرسها على وجه الخصوص لدراسة اللغة، والتي أثرت تأثيرا مهما في دراسة الترجمة. ويسلم المؤلف" بقاعدة موحدة لمجمل الأعمال الفنية، ألا وهي مفهوم المحاكاة" (d'Hulst 1990: 40).

يوضح باتو في"الرسالة الثالثة المتضمنة قواعد الترجمة، المستنبطة مثل غيرها من النتائج، من مقارنة لغتين هما اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية"، يوضح أهمية تسلسل

الكلمات والأفكار الذي ينبغي المحافظة عليه في الترجمة مثل محافظتنا على طول الجمل المنمقة، ومكان الروابط والظروف.

يعتبر باتو أيضا أنه ينبغي الحفاظ على تماثل الجمل وعدم تضخيم روعة كتابة أو إنقاصها، وأنه ينبغي نقل الصور البلاغية بعناية، وأن يكون في مقابل القول المأثور قول مأثور.

تندرج هذه المبادئ في إطار تمييز مهم لدى باتو: "أميز بين نوعين من الترجمة، النوع الأول هو الترجمة التي تنقل كاتبا معينا بإتقان يجعلها تقوم مقامه، تقريبا مثلما تقوم نسخة من لوحة رسمتها يد ماهرة مقام الأصل. والنوع الثاني هو الذي لا يقوم مقام الأصل ولكنه يساعد على فهم معناه، ويمهد الطريق لفكر القارئ. وهو قريب من الرشمة estampe (d'Hulst 1990: 32).

ينبغي أن نبين، في هذا التشابه بين نظامين سيميائيين، مقارنة الترجمة "نسخة من لوحة" في الحالة الأولى، وبالـ"رشمة" في الثانية. ولكن يتعذر الوصول إلى الأصل في جميع الأحوال، إذ أنه يبقى فريدا. ولذلك، ينصح باتو بالاكتفاء بالحرفية، لكنه يوضح أنه لا ينبغي الخلط بينها وبين المحاكاة. ويرى أن الأمر متروك للذوق لتنظيم الحدود بين الحرية والقوانين".

(٣,٧) المقدس في مقابل المدنس

كانت اللغة اللاتينية طيلة العصور الوسطى لغة الطقوس في الكنيسة، وكان كل شيء مكتوبا باللاتينية أو مترجما إليها. ولكن الترجمات أصبحت تدريجيا من اللاتينية إلى اللغات المحلية التي تسمى"مدنسة" أو "عامية"، والتي تعتبر أدنى مرتبة (من اللاتينية: vulgus وتعني عامة الناس la foule)، ثم ترجمت بين مختلف اللغات "العامية" التي ليست سوى لغات أوروبا الحالية.

وهكذا كان وراء أول ترجمة من لغة عامية إلى لغة عامية أخرى الملك شارل لوشوف Charles le Chauve (كان ملكا بين عام ٨٤٣م وعام ٨٧٧) وأخوه لويس الجرماني اللذين طلبا ترجمة جرمانية لنص قسم ستراسبوغ Serment de Strasbourg الروماني roman (Kelly 1979: 205).

وأما في اللغة الإنجليزية، فالترجمات البارزة هي من عمل الراهب ألفريك Aelfric الملقب باسم غراماتيكوس Grammaticus (٩٥٥-١٠٢٠)، الذي دعم ترجمة بسيطة وأمينة للنصوص التوراتية المعدة لعامة الناس (Ballard 1922: 62).

شهدت الترجمة التوراتية شغفا أكيدا رغم منع الكنيسة الكاثوليكية التي تعتبر الترجمة بشكل عام تشويها، بل تحريفا للمعنى المقدس. فالتحذير من *الكتب المقدسة* المنشورة باللغات "العامية" كان كافيا لاتهام أصحابها بالهرطقة. وأما المترجمون المذنبون فغالبا ما يكون مصيرهم المحرقة. وهكذا شرع ويليام تاندال William Tyndale (١٤٩٤-١٥٣٦) في ترجمة *العهد الجديد* في لندن في عام ١٥٢٣م. وكان يريد دحض فكرة مفادها أن اللغة "العامية" غير قادرة على نقل النص المقدس بشكل مناسب. وقد كلفته جرأته الإعدام والحرق.

وعلى الرغم من كل شيء، تم إنجاز ترجمات أخرى *للعهد القديم والعهد الجديد* باللغة المدنسة. وتتميز هذه الترجمات إجمالا "بلغة بسيطة، وغير متكلفة، وغير ركيكة [...]، مبتكرة نثرا توراتيا أثر تأثيرا كبيرا في الأدب الإنجليزي كله" (Van Hoof 1991: 126).

وأما بخصوص الترجمات إلى الفرنسية، فيقول بالار: "وهكذا تظهر في فرنسا، ومنذ نهاية العصور الوسطى، طريقة سائدة تتجنب الحرفية لأسباب تتعلق بالوضوح والرشاقة[...]. وقد استمر هذا النوع من الترجمة، وتطور حتى بدايات عصر النهضة.

وساهم في رغبة إيصال نصوص مكتوبة باللاتينية (أو باليونانية) – مخصصة حتى ذلك الوقت للعلماء فقط – لأكبر عدد ممكن، لاسيما لعامة الناس" (Ballard 1992: 86).

لقد تمت الإشارة إلى الطابع "المؤسس" لترجمة لوثر *التوراة* مرات عديدة: كانت هذه الترجمة ليس فقط أصل "لغة شعبية معممة" وإنما أيضا "أول عمل ألماني مهم" (Berman 1984: 46). لقد منحت ترجمة لوثر *التوراة* إلى اللغة العامية اللغة الألمانية وضعا واستقلالا غير موجودين من قبل، وساهمت أيضا في تحديد شكل جديد للغة الألمانية" (Savory 1957: 39).

لقد دفعت كل تلك الخصوصيات فان هوف Van Hoof إلى القول: "إن جودة ترجمة لوثر جعلت منها أثرا أساسيا ليس فقط بالنسبة إلى تاريخ الترجمة وإنما أيضا بالنسبة إلى الأدب الألماني كله"(Van Hoof 1991: 214).

وفضلا عن ذلك، لا يمكن إنكار أن تأملات لوثر Luther بخصوص العلاقة بين اللغات تعتبر معاصرة: " ينبغي ألا نطلب من كلمات اللغة اللاتينية كيفية التحدث بالألمانية كما يفعل هؤلاء الحمقى، بل ينبغي أن نطلب ذلك من ربات البيوت، والأطفال في الشوارع، والرجال من عامة الشعب في ساحات الأسواق، وأن نقرأ كيف يتكلمون من حركات شفاههم. وينبغي أن نترجم بالاعتماد على ذلك، لأنهم سوف يفهمون ويكتشفون أننا نخاطبهم بالألمانية" (Van Hoof 1991: 214). ومع ذلك، ينبغي أن أشير إلى أن كاري يُعد، على المستوى النظري، أقل مديحا فيما يخص إسهام لوثر في التأمل في الترجمة: "إن هذه الرسالة Epître في الترجمة [رسالة لوثر] تتضمن تأكيدات حاسمة بالغة الأهمية. ومع ذلك، كان ينبغي انتظار إتيان دوليه Etienne Dolet لرؤية صياغة نظرية حقيقية في الترجمة" (Cary 1956: 17).

الترجمة إلى الفرنسية

يصعب الكلام على الترجمة إلى الفرنسية قبل عصر النهضة. ولا جرم أننا نجد هنا وهناك ترجمات طقوسية أو إدارية إلى اللغة الفرنسية، ولكن اللاتينية بقيت اللغة الهدف في الترجمات حتى نهاية القرن السادس عشر بالنسبة إلى النصوص الأدبية على الأقل، وحتى نهاية القرن الثامن عشر بالنسبة إلى النصوص العلمية.

حصل التحول مع ذلك في منتصف القرن السادس عشر: أمر ملك فرنسا في عام ١٥٣٩ باعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية، مثل اللغة اللاتينية التي كانت آنذاك لغة العلم والنخبة. واستفاد مفكرو النزعة الإنسانية بفضل ازدهار الطباعة من الأمر الملكي لنشر المعرفة في أوساط الشعب من خلال الترجمة إلى اللغات المحلية التي يفهمها كل الناس.

إن أحد أكثر المترجمين نشاطا هو جاك أميو Jacques Amyot(١٥١٣-١٥٩٣): لقد اشتهر أميو على وجه الخصوص بسبب ترجماته الكلاسيكية انطلاقا من اليونانية القديمة. وأما إتيان دوليه Étienne Dolet (١٥٠٩-١٥٤٦) الذي اشتق كلمتي مترجم traducteur وترجمة traduction، فهو أحد كبار المنظرين في عصر النهضة. وقد وضع كتابا وجيزا في الترجمة تحت عنوان: *كيفية الترجمة الجيدة من لغة لأخرى* (١٥٤٠).

وأما في القرن السابع عشر، فقد أعد غاسبار دو تيند Gaspard de Tende (١٦١٨-١٦٩٨) أيضا كتابا وجيزا ومؤسسا بعنوان: *عن الترجمة، أو قواعد من أجل تعلم الترجمة جيدا*.

وكتبت مدام دو ستال Mme de Staël (١٧٦٦-١٨١٧) كتابا وجيزا يركز على الوظيفة الأدبية للترجمة في إثراء الثقافات: *عن روح الترجمات*.

وأما في بداية القرن العشرين، فقد ألّف فاليري لاربو Valéry Larbaud (١٨٨١-١٩٥٧) كتابا وجيزا يلخص تاريخ الترجمة: *تحت رعاية القديس جيروم* (١٩٤٦).

إن علماء الترجمة الفرنسيين الأكثر تأثيرا هم جورج مونان Georges Mounin (١٩١٠-١٩٩٣)، وأنطوان بيرمان Antoine Berman (١٩٤٧-١٩٩١)، ودانيكا سيليسكوفتش Danica Seleskovitch (١٩٢١-٢٠٠١)، وهنري ميشونيك Henri Meschonnic، وجان-رونيه لادميرال Jean-René Ladmiral، وماريان لوديرير Marianne Lederer، وميشسل بالار Michel Ballard، ودانييل جيل Daniel Gile.

(٣,٨) الأمانة في مقابل الحرية

إن النقاش حول الأمانة في الترجمة هو على الأرجح أحد أكثر الموضوعات قدما وتعقيدا: هل ينبغي على المترجم أن يبقى أمينا للنص؟ وهل يجب عليه أن يكون أمينا للألفاظ أم للمقاصد La lettre ou l'esprit؟ وإلى أي مدى يمكن أن يكون أمينا للمصدر؟ أسئلة كثيرة تشغل بال المترجم منذ قرون، واختلفت الإجابات بشأنها اختلافا كليا: بين أنصار الحرفية الأكثر دقة والمدافعين المتحمسين عن "الجميلات الخائنات"، لا يدري المترجم بمن يلوذ: " كانت طريقة الترجمة على مر التاريخ تُفرض وفقا لقطبين متعارضين: يضع الأول الترجمة الحرفية، أي الأمينة، في مقابل الترجمة الحرة أو"الخائنات الجميلات"؛ ويضع الثاني أولوية المضمون في مقابل الشكل" (Larose 1989: 4).

وكان القديس أوغستينوس saint Augustin (٣٥٤-٤٣٠) المعجب بالقديس جيروم saint Jérome قد أعلى من شأن مفهوم الأمانة الذي أصبح الإشكالية الرئيسة في نظريات الترجمة اللاحقة: "يمكن التأكيد أن كل نظريات الترجمة، سواء كانت شكلية

أم براغماتية أم تاريخية، ليست سوى شكلا مختلفا لسؤال واحد وأزلي: كيف يمكننا أو كيف ينبغي علينا أن نتوصل إلى الأمانة؟ [...] وإننا نتباحث في هذا السؤال منذ أكثر من ألفي عام. ولكن هل يمكننا القول إن ثمة أمر مقبول يمكن إضافته إلى مصنف القديس جيروم: الترجمة الحرفية في حالة الغموض، وترجمة المعنى بالمعنى في الحالات الأخرى؟ (Steiner 1975: 245).

إننا نعلم أن الأمانة شكلت مبدأ فرض نفسه أولا بواسطة ترجمة *الكتاب المقدس*. وقد شهدنا بعد ذلك انتقال هذه الهموم الدينية إلى مجال الترجمة غير الدينية، من دون إيجاد مخرج للمأزق الذي كانت تشعر به أجيال من المترجمين. وكان ينبغي انتظار القرن العشرين لرؤية ظهور المحاولات الأولى لمقاربة نقدية لا تحمل صفة القداسة، ومتحررة من الثنائية الأمانة/ الحرية.

يرى شتاينر في كتابه *بعد بابل* ١٩٧٥ (أن النقاش بشأن الأمانة في الترجمة غير مجد وعقيم. ولهذا فإنه يدعو إلى تجاوز هذه الثنائية الناجمة عن الاعتراض المسبق : مع أو ضد إمكانية الترجمة. ويقترح النظر إلى المشكلة من زاوية مدى الأمانة.

"إن رفض شرعية الترجمة لأنها ليست ممكنة دائما وغير كاملة أبدا أمر عبثي، فالأمر الذي يطالب المترجمون بتوضيحه هو مدى الأمانة التي ينبغي أن نحددها لأنفسنا في كل حالة، ومدى التساهل حسب المستويات المختلفة، فهناك تحديد واضح ودقيق عبر تاريخ الترجمة وممارستها. وليس هناك كتاب عالج المسألة لم يميز بين ترجمة الوثائق العادية – الشخصية، والتجارية، الوقتية تعريفا- وإعادة الإبداع التي يمثلها نقل النص الأدبي، والفلسفي، أو الديني من لغة لأخرى" (Steiner 1978: 236).

وأما أورتادو- ألبيرHurtado-Albir فيتعلق جوابه بالجوهر: لقد ظلت مشكلة معرفة أي مدى وأية أمانة للجودة ينبغي مطالبة المترجم بهما سذاجة أو كذبة فلسفية منذ شيشرون Cicéron والقديس جيرومsaint Gérome حتى أيامنا هذه. ويسلم بقطبية

دلالية "الكلمة/المعنى"، ويتساءل بعد ذلك عن أفضل وسيلة لاستغلال "الفضاء الذي يفصل بينهما".

يتضح أن المسألة الأساسية في إشكالية الأمانة هي مسألة "القطبية": ينظر إلى النص المراد ترجمته بطريقة مغلوطة على أنه تركيبة من "مضمون" و"شكل" أو أيضا من "كلمات" و"معان"، في حين أنه في الواقع كل لا يتجزأ ينبغي إدراكه في علاقته مع سياق خاص، ووفقا لقصدية finalité محددة. وإذا تم وضع الإطار العام للترجمة بشكل جيد، فإن الأمانة لن تكون مشكلة، إنها تصبح خيارا من جملة خيارات أخرى على سلم أفعال المترجم الواعية.

(٣,٩) الكلمة في مقابل الفكرة

يعد شيشرون Cicéron في كتابه *De finibus* (١٠٦- ١٤٣) أول من بدأ النقاش: "ليس من الضروري دائما أن تنسخ لغتك اللغة اليونانية مثلما يفعل مترجم عديم المهارة. إنني أرى، عندما يتعلق الأمر بالترجمة، أنه لا يمكنني أن أنقل بالإيجاز نفسه ما يقوله الإغريق بعبارة واحدة، فإنني أعبر عنه بعدة عبارات. وأستعمل أحيانا الكلمة اليونانية عندما لا أجد مقابلا دقيقا في لغتنا" (Horguelin 1981: 19).

ويجيب *القديس جيروم* (٣٤٧-٤٢٠) في كتابه الوجيز *De optimo genere interpretandi* على الذين انتقدوا إحدى ترجماته بعبارات تكرر جوهر الجدال الذي دار في ذلك العصر" بالقول: "أجل، فيما يخصني، لا أقر بذلك فقط ولكنني أجاهر به أيضا من دون انزعاج، وبصوت عال: عندما أترجم اليونانية - باستثناء الكتب المقدسة التي يبقى فيها نظام الكلمات غامضا، فإنني لأترجم حرفيا وأعبر عن المعنى بالمعنى" (*رسائل القديس جيروم*: Lettres de saint Gérome 1953/3: 59).

إننا نرى جيدا أن التقابل بين الكلمة والمعنى معلن بوضوح، مع الإشارة إلى تفضيل المؤلف ترجمة المعنى، باستثناء الترجمة التوراتية التي يرجح فيها الغموض كفة الحرفية. يقول القديس جيروم: "منذ شبابي، لم أترجم الكلمات وإنما الأفكار".

لم يؤيد القديس جيروم الرؤية ثنائية التفرع للترجمة (الكلمة في مقابل المعنى)، واقترح تكيفا مع نمط النص المراد ترجمته: تخصيص"الترجمة الحرفية" للنصوص المقدسة، وترجمة "الفكرة بالفكرة" للنصوص المدنسة . وباختصار: إن منهج الترجمة يتحدد وفقا لطبيعة الأصل. وهذا خيار عمد إليه التيار الترجمي الوظيفي في القرن العشرين، لاسيما في ألمانيا.

كُلّف القديس جيروم في عام ٣٨٤ بمراجعة ترجمة *الكتاب المقدس* اللاتينية *Vetus latina*. وقد عمل عليها حتى وفاته في عام ٤٢٠، معتمدا على النص العبري وعلى عدة ترجمات يونانية. وقد تمخض عمله عن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدسVulgate ، التي اعتبرت لفترة طويلة إحدى أفضل ترجمات *التوراة*: "إجمالا، تشكل ترجمة القديس جيروم غالبا توفيقا بين رغبة متابعة نص الرسالة الدينية بدقة وإرادة استخدام لغة صحيحة ورشيقة ما أمكن" (Van Hoof 1991: 13).

وينصح الشاعر والفيلسوف بويس Boès (توفي في عام ٥٢٤) بالالتزام بالترجمة الحرفية، وذلك بهدف عدم تشويه الحقيقة. ونلاحظ أن العصور الوسطى التي أخذت بهذه النصيحة موسومة، من أولها إلى آخرها، بالنقاش حول الكلمة والفكرة في الترجمة.

لقد نشر سيباستيانو Sebastiano في عام ١٥٥٦ في البندقية Venise مؤلف شيشرون (١٥٥٦) Del modo de lo tradurre d'una lingua in altra seconda le regole mostrate الذي يلخص النقاش. يستعيد سيباستيانو وجهات نظر شيشرون Cicéron وهوراسHorace، ويرى أن "الكلمة " تجعل المترجم يميل إلى "الحرفية" ولكن "الفكرة" تقرب الترجمة من التأويل: ينبغي في الحالة الأولى الالتزام بحرفية النص، وفي الحالة الثانية تأويل المعنى. ويتعلق كل شيء بتعقد النص المراد ترجمته (Ballard 1992: 96).

يقدم سيباستيانو - بهدف شرح مختلف وجهات النظر هذه - شخصيتين تقارنان وجهات نظرهما حول الترجمة: الأول من أنصار الترجمة الحرفية، والثاني من أنصار ترجمة الفكرة. ويتدخل خلال الحوار مُشاهِد لمحاولة التوفيق بين الموقفين فيقترح حلا وسطا، ولكنه يزيد الأمر غموضا. وهكذا ينقسم الحاضرون إلى ثلاث فئات: أنصار الحل الوسط بين "الكلمة والفكرة"، وأنصار "الكلمة "، وأنصار "الفكرة".

(٣,١٠) الألفاظ في مقابل المقاصد

لقد ترجم الرومان أعمالا كثيرة من الحضارة الإغريقية التي كانوا معجبين بها. وعلى العكس من الإغريق الذين لم يكن لديهم سوى كلمة واحدة للإشارة إلى الترجمة (hermeneuein: يفهم، ويشرح)، كان الرومان يستخدمون عدة ألفاظ للإشارة إلى النشاط الترجمي، وهي: converto, tranverto, imitare, reddere, verto, translatare (Van Hoof1991:14).

لقد ترجم ليفيوس أندرونيكوسAndronicus Livius الأوديسة للشاعر الإغريقي هوميروس Homère (القرن الثامن ق.م.) إلى اللاتينية، وبقالب شعري حوالي عام ٢٤٠ ق.م. ولكنه تصرف كثيرا في ترجمته التي يمكن اعتبارها تكييفا للعمل الأصل: " بدأ العديد من الكتاب اللاتينيين في تلك الفترة يستخدمون النصوص الإغريقية الأصلية أساسا للترجمة بتصرف أو مصدرا للإلهام في أعمالهم الإبداعية الشخصية تقريبا" (Van Hoof 1991: 14).

تندرج تلك الترجمات في الواقع في إطار تيار جمالي يهدف إلى نسخ الأعمال الإغريقية الرائعة التي اعتبرت نموذجا ينبغي تقليده. ولم تكن وظيفة الترجمة جعل الأعمال المترجمة متاحة لجمهور ذلك العصر، إذ أنها كانت تعتبر تدريبا أدبيا يشكل جزءا مكملا من فن الخطابة.

ولهذا السبب تناول شيشرون Cicéron(١٠٦-٤٣ ق. م.)، من جهة أخرى، المسائل المتعلقة بالترجمة، وذلك في كتابه *De Optimo genere oratorum*. لقد وضع سيشرون في كتابه الوجيز هذا المخصص للفصاحة، المعالم الأولى لتأمل شكّل بعد عدة قرون الجزء الأساسي من التأمل الترجمي: "لقد نقلت إلى اللاتينية أكثر خطابين شهرة لأكثر أديبين يونانيين فصاحة: إيشين Eschine وديموستين Démosthène. وهما خطابان يشكل أحدهما ردا على الآخر، وقد نقلتهما إلى اللاتينية ليس بوصفي مترجما وإنما بوصفي خطيبا، فالأفكار، وطريقة التعبير عنها، والصور في الخطابين، بقيت نفسها. وأما الكلمات، فكانت مطابقة لاستخدام لغتنا. ولم يكن ضروريا باعتقادي أن أنقل حرفيا، فقد حافظت على أسلوب العبارات وقيمتها إجمالا. ورأيت أنه كان ينبغي علي أن أعوض القارئ، إن جاز القول، بالتفكير في مجمل العمل دفعة واحدة وليس بشكل مجزأ" (Ballard 1992: 39).

يظهر من تلك التأملات الاتجاهان اللذان طبعا تاريخ الترجمة بطابعهما: "الترجمة الحرفية" التي يرفضها شيشرون، والترجمة التي تتقيد بهوية "الأفكار"، والتي يؤيدها. ويبدو شيشرون منذ ذلك الوقت "محتفيا" بالترجمة بتصرف في حين أنه يُعرّف نفسه بأنه خطيب قبل كل شيء.

وأما النحوي الضليع في فن الخطابة نيقولا بوزيه Nicolas Beauzée (١٧١٧-١٧٨٩)، فيتبنى موقفا قريبا ولكنه جدلي، وذلك باللجوء إلى الاستعارة الدينية. ويرى "لا شيء أكثر ندرة من ترجمة ممتازة، لأن لا شيء أكثر صعوبة وأكثر ندرة من المحافظة على موقف وسط بين حرية التعليق وعبودية الحرفية، فالتمسك الدقيق بالحرفية يقضي على روح النص، فالروح هي التي تهب الحياة. وأما التصرف المفرط فيقضي على السمات المميزة للأصل، ويجعل منها نسخة غير أمينة" (d'Hulst 1990: 45).

تجدر الإشارة هنا إلى الاستعارة الدينية الكامنة التي يتضمنها النص، "فالتمسك الدقيق بالحرفية يقضي على روح النص، والروح هي التي تهب الحياة". ويجد المترجم نفسه وفق هذا المنظور على بعد خطوتين من "الروح القدس"، وتُلتمس الترجمة لتهب الحياة لنص مشخصن".

إن هذا النمط من الاستعارة الدينية نموذجي في تأملات ما قبل الحداثة المتعلقة بالترجمة، ويشكل جزءا من معرفة épistémè ذلك العصر. وفضلا عن ذلك، هل ينبغي الحذر من كل مفارقة تاريخية في معالجة إشكاليات الترجمة؟ إن هذا غير ممكن إلا باللجوء إلى تأطير دقيق للكتّاب والأعمال المكتوبة: من الذي يكتب عن الترجمة؟ وفي أي سياق تاريخي وسياسي؟ ولماذا، ولأي هدف يكتب؟ إن الإجابة المدعمة وحدها هي التي تسمح بالحكم، بطريقة موضوعية، على أهمية الأسئلة المطروحة، وصواب الإجابات المقدمة.

وفضلا عن ذلك، هذا التقابل بين الألفاظ والمقاصد مرتبط بالتلقي، فضرورة "مكافأة القارئ" التي أشار إليها شيشرون تمثل بداية الجدال بين "أهل المصدر" و"أهل الهدف": يركز الفريق الأول جهوده على النص المصدر، ويبدي الفريق الثاني اهتماما أكبر بتوقعات الجمهور الهدف.

لقد كتب ميشونيك (Meschonnic 1973: 362) بخصوص الألفاظ والمقاصد: لقد لوحظ في تاريخ الترجمة، في حضارتنا الأوربية والشرق أوسطية، أن الترجمة التفسيرية سبقت الترجمة الأدبية في كل مكان تقريبا (رابان Rabin). كان لفظ الترجمة Targoum يجمع بين الترجمة والترجمة التفسيرية. ثم أصبحت الترجمة في العصور الوسطى حرفية لأنها ترجمة دينية: كانت الألفاظ مقدسة. وأما عصر النهضة الذي تحرر منها فقد اتجه نحو التعادل الديناميكي، والترجمة التفسيرية بهدف التأثير الشامل.

وقد كانت أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر تعيد كتابة الأعمال الأجنبية وفق المعايير الكلاسيكية، وتضع الدقة في مقابل الجمال، الأمر الذي يمثل امتدادا جماليا لثنائية الألفاظ والمقاصد الغربية والمسيحية، واستمرارا لرد الفعل المعارض للحرفية في القرن السادس عشر. وقد عارضت *الموسوعة* l'*Encyclopédie* هذه الحريات: ألا نضيف، وألا نحذف، وألا نغير أي شيء. وهذا ما كان يفعله فلوريان Florian في *دون كيشوت*. وأما الرومانسية التي اتجهت نحو الفردي والذاتي فقد اختارت الترجمة الحرفية، وفضلت، في نهاية القرن، الترجمة العلمية، وماتيو أرنولد Matthew Arnold أو لوكونت دوليل Leconte de Lisle. ولم نعد نقابل اليوم بين الدقة والجمال. ونسعى بالأحرى إلى الجمال عبر الدقة. وحتى أننا بالأحرى نستهدف جمهورا".

(٣,١١) القومي في مقابل الأجنبي

تميز القرن التاسع عشر بصعود القوميات في كل أنحاء أوروبا. وتمت رؤية الترجمة مشوهة من خلال الأيديولوجيا القومية وفق التقابل "قومي"/ "أجنبي". ولا يمكن في مواجهة هذه الإشكالية النظر لكل الدول من الناحية نفسها. فالمواقف تختلف وفقا لتطور علاقات الهيمنة الدولية.

كان معظم الكتاب الفرنسيين حتى نهاية القرن الثامن عشر يترجمون بطريقة "متحذلقة". ويتكلم نايدا Nida في هذا الصدد على "حذلقة عالية". وكان الاتجاه العام تكييف الأعمال الأجنبية مع توقعات الجمهور الفرنسي، ومع البحث عن جمال أسلوبي في مقابل انزياح دلالي عن الأصل. واتضح الذوق الفرنسي في اختيار الموضوعات والكتّاب. وبدأت تتضح في ذلك العصر معالم "مدرسة فرنسية" في الترجمة، يمكن على سبيل المثال رؤيتها من خلال "خطاب حول الطريقة الحقيقية في الترجمة" (١٧٧٢) الذي استهل به جان فرانسوا فوفيلييه Jean-François Vauvilliers (١٧٣٧-١٨٠١) دراسته عن باندار Pindare.

وأما في ألمانيا، فقد انتقد الكتّاب الذين ابتعدوا عن التقليد اللوثري الكتّاب الذين يستلهمون من الأدب الفرنسي. وهكذا لام غوتولد إيفرايم لسينغ Gotthold Ephraim Lessing (١٧٢٩-١٧٨١) يوهان كريستوف غوتشيد Johan Christoph Gottsched (١٧٠٠-١٧٦٦) لأنه "فرنس" المسرح الألماني. وقد تأكد منذ منتصف القرن الثامن عشر رد فعل على التقليد الفرنسي: "بُنيت النظرية الألمانية في الترجمة بشكل واع على معارضة الترجمات على الطريقة الفرنسية" (Ballard 1992: 228).

ازدهار الترجمة

إننا نشهد اليوم ازدهارا غير مسبوق للترجمة، ونموا كبيرا في حجم الترجمات المنجزة. وتأتي هذه الثورة الترجمية نتيجة عولمة الاقتصاد وانتشار الإنترنت. ولكن البعض يعتقد أن هذه الظاهرة نتيجة غير مباشرة لنمط آخر من الأحداث التاريخية الحاسمة، أي الحرب التي تغير أحيانا مسار التاريخ تغييرا جذريا. حتى أنه يمكن التساؤل إن كانت الترجمة تعكس، إلى حد ما، علاقة هيمنة و/ أو خضوع بين المنتصر والمهزوم.

يميز بالار في كتابه من *شيشرون إلى بنجامان* (Ballard 1992: 91) عدة مراحل تاريخية في النمو الملحوظ للنشاط الترجمي، وأهمها برأيه التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية. وأما بشأن عصر النهضة، وهو مرحلة تاريخية أخرى مضطربة ورئيسة بالنسبة إلى نمو الترجمة، فإنه يتوقف عند المعالم التالية: "سقوط الإمبراطورية الرومانية، والنزعة الإنسانية، وإعادة اكتشاف العصور القديمة، واختراع المطبعة، ومن ثم الجدال المتعلق بالإصلاح". وتبقى العلاقة بين النشاطات الترجمية والحروب الدينية، اليوم أيضا، أحد الجوانب الترجمية الأقل دراسة.

وهكذا يؤيد بودمير Bodmer (١٦٩٨-١٧٨٣) ترجمة حرفية تعرض أسلوب نص الانطلاق. ويعتبر بريتنجر Breitinger (١٧٠١-١٧٧٦) أيضا أن نص الوصول ينبغي أن يثير انطباعات مشابهة لتلك التي يشعر بها قارئ الأصل. ويلاحظ فان هوف (Van Hoof 1991: 232) تطورا أكيدا في ألمانيا خلال تلك الفترة: "لقد تنبهت الأذهان، واتضحت وجهات النظر خلال الحوار الوطني الدائر المتعلق بتأييد الترجمة أو رفضها".

يمكن القول إن الترجمة كانت خلال المرحلة الرومانسية مسألة قومية. ويلخص ميشونيك (Meschonnic 1991: 232) على طريقته هذه الجدلية بين القومي والأجنبي: "عندما كانت الآداب القومية في طور التكوين، كانت الترجمة والكتابة تعنيان الشيء نفسه، ثم أصبحت الترجمة تعني الكلام على آخر. وظهر بعدئذ مفهوم الأدب العالمي لدى غوته Goethe. وأغلقت بعد ذلك أبواب التاريخ الأدبي الذي يحجب الأجنبي للاعتقاد بوجودها".

(٣,١٢) المنتصر في مقابل المهزوم

تقليديا، يعود تاريخ الدلائل الأولى على النشاط الترجمي إلى الألف الثالثة قبل الميلاد (Cary 1956: 132). ويبدو أن هذا النشاط بدأ مبكرا جدا، ولكنه كان حكرا على نخبة إدارية مكلفة بإدارة العلاقات بين مختلف الشعوب الصديقة أو العدوة: "بعد أن تعرضت سومر تدريجيا للغزو في الربع الأخير من الألف الثالثة قبل الميلاد على يد الساميين الأكاديين، بدأ الأساتذة السومريون بتحرير أقدم "القواميس" المعروفة لدينا. ولم يكتف الغزاة الساميون في الواقع باستعارة الكتابة السومرية، ولكنهم حافظوا أيضا على الأعمال الأدبية التي كتبت بها بعناية، ودرسوها وقاموا بمحاكاتها لفترة طويلة بعد أن اختفت اللغة السومرية ولم تعد لغة محكية" (Kramer 1957: 46).

وهكذا تبدو الترجمة بالنسبة للغازي- أو بالنسبة للحضارة المهيمنة- وسيلة لاستيعاب الشعوب المهزومة، ودمج معرفة ثقافتها بسرعة. وقد بقيت الحضارة

الإغريقية بعيدة عن هذه الحركة التاريخية، الأمر الذي يفسر إلى حد كبير عدم أهمية مكانة الترجمة فيها. كان اليونانيون في الواقع يعتبرون اللغات الأخرى"همجية"، ويحتقرون نتيجة لذلك كل ما يمت بصلة إلى "الأجنبي"، فحتى التأمل الفلسفي في اللغة كان موسوما بعرقية وصل بها الأمر حد اعتبار سمات خاصة باللغة اليونانية أنماطا كونية.

ينبغي التذكير بأن اليونانيين كانوا في ذلك العصر يسيطرون على جزء كبير من العالم القديم المعروف، وأن الترجمة بالمعنى الضيق تتم بشكل أساسي إلى اليونانية، وأن حجر رشيد Pierre de Rosette مثال يوضح ذلك (Nida 1964: 11). فهذه المسلة المصرية التي يعود تاريخها إلى العصر البطليموسي ptolémaique تحمل في الواقع إحدى أشهر الترجمات في العصور القديمة. وقد تم إنجازها في عام ١٩٦ ق.م. أثناء حكم بطليموس الخامس، واكتشافها في عام ١٧٩٩ أثناء حملة نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte على مصر. وتتضمن نصا (أو المصدر والهدف المتقابلان biscript) مكتوبا بالهيروغليفية وبالخط الديموطي، مع ترجمته إلى اليونانية. والنص "مادة نصية متوازية" حقيقية سمحت لشامبليون Champollion بفك شيفرة الكتابة الهيروغليفية في عام ١٨٢٢.

تدل عدة دراسات على العلاقة بين النشاط الترجمي والغزو العسكري. وأقدم دليل على الأرجح هو معاهدة "قادش" التي وقعت بعد معركة بالاسم نفسه في عام ١٢٨٦ ق.م. بين مملكة الحثيين ومصر تحت حكم رمسيس الثاني Ramsès II وكان مترجمان جاسوسان في صلب العملية التي أدت في نهاية الأمر إلى إقامة السلام بين الطرفين.

ويذهب بعض المترجمين إلى تأكيد "حق المنتصر" في أن يترجم، على هواه ووفق حاجاته، مؤلفات المهزوم ونصوصه. ويرون أنه بوصفه غازيا لا يخضع للقواعد المقررة سلفا. ويستشهدون بهذا الرأي القاسي الذي يظهر في مقدمة ترجمة *حياة القديس*

أنطوان التي أنجزها إيفارج Evarge: "لو أردت نقل شهادات كل الكتّاب الذين ترجموا حسب المعنى، فلن يكفيني يوم واحد. ويكفي حاليا أن أذكر هيلير لوكونفسور Hilaire le Confesseur [...] فبدلا من التمسك بالحرفية الفاترة، وتعذيب النفس بترجمة مصطنعة على طريقة الجهلة، قام هيلير لوكونفسور باستخدام حق المنتصر ففهم الأفكار تقريبا، ونقلها إلى لغته الخاصة" (Ballard 1992: 49).

وهكذا، ربما تكون ترجمة "الأفكار" حكرا على المنتصر، ونوعا من الانتصار النهائي على العدو، الذي تعرض للغزو حتى من خلال لغته. وقد كرر هذه الاستعارة الحربية وأكدها فيما بعد عدد من المؤلفين المعاصرين مثل نايدا Nida وإدموند كاري Edmond Cary.

(٣,١٣) الترجمة الأدبية في مقابل الترجمة العلمية

سعى الكتاب والمترجمون بدءا من القرن السادس عشر إلى الوصول إلى جمهور أكثر فأكثر اتساعا، وتكيفوا بذلك مع الحاجات التي تميز عصرهم. يشير فان هوف (Van Hoof 1991: 31) في هذا الصدد إلى أن "عصر النهضة الذي شعر بالحاجة إلى وضع مصطلحات لتسمية وقائع جديدة صاغ مفهوما جديدا كليا للترجمة"، فالمترجمون الذين تأثروا بعملهم على النصوص الدينية التي كانوا يريدون إيصالها لأوسع جمهور أنتجوا تيار الترجمة - التعميم الذي يخالف تقريبا ظاهرة الترجمة- العلم الذي ساد في القرون الماضية.

وفضلا عن ذلك، تخلى المترجمون شيئا فشيئا خلال القرن الثامن عشر عن النصوص اليونانية واللاتينية، واتجهوا إلى الآداب واللغات التي اعتبرت "غريبة جدا": الروسية، والفارسية، والعربية، والسنسكريتية. وكان ينبغي انتظار عام ١٧٨٢ لترجمة أعمال شكسبيرShakespeare الكاملة إلى اللغة الفرنسية بفضل عمل العلامة بيير لو تورنور Pierre le Tourneur (١٧٣٦-١٧٨٨). والواقع أن الظاهرة الجديدة في القرن

الثامن عشر تتمثل في الاهتمام بترجمة الوثائق العلمية والفلسفية لتكون متاحة للجمهور، ولتساهم في التقدم الاجتماعي. إنها بداية الترجمات المتخصصة، لاسيما في المجالات العلمية، والقانونية، والتاريخية، والجغرافية (Van Hoof 1991: 62).

لقد ركز ويليام غوتري William Guthrie (١٧٠٨-١٧٧٠)، بعد إتيان دو سيلوويت Etienne de Silhouette وكتابه *تأملات أولية في تذوق الترجمات* (١٧٣٩)، على أهمية البحث التوثيقي بالنسبة إلى مترجم هذا النمط الجديد من المطبوعات المعممة. وقد شهد صدور القواميس العامة والتقنية ثنائية اللغة ومتعددة اللغات نموا مهما خلال القرن الثامن عشر. ويذكر فان هوف (Van Hoof 1991: 57) بعضا منها: *قاموس الهندسة لاتيني-إنجليزي-فرنسي-أسباني-إيطالي* الذي وضعه رولان دو فيرلوييه Roland de Virloyer (١٧٧٠-١٧٧١).

وأما على الصعيد النظري، "فليس هناك نظرية ترجمية موحدة بعد ١٧٥٠، وإنما نظريات تسير جنبا إلى جنب أو تتنافس بشكل علني تقريبا، تحت رحمة التحالفات والخصومات بين النحويين والبلاغيين. ومن أنصار هذا التناقض الأساسيين بوزيه وباتو (d'Hulst 1990: 17).

والواقع أن انتشار الثورة الصناعية في سائر أرجاء أوروبا أدى إلى تقدم الترجمة التقنية أكثر فأكثر على الترجمة الأدبية، وإلى تعدد القواميس المتخصصة وتنوعها. وقد وصف كاري (Cary 1956) القرن العشرين بأنه "عصر الترجمة التقنية المهمة، وعصر الترجمات الكثيرة المتخصصة"، فالفرق الأساسي الذي يميز برأيه الترجمة المتخصصة من الترجمة الأدبية هو براغماتيتها: "تحتل الترجمة قطعيا مكانة مهمة في المجتمع المعاصر[...]. وتقوم، على العكس من الترجمة الأدبية، بوظيفة اقتصادية واجتماعية ضرورية في عالم يبدو أشبه بآلة ترجمة ضخمة، تعمل بسرعة متزايدة باستمرار".

ومع ذلك، كان ينبغي- على الصعيد النظري- انتظار النصف الثاني من القرن العشرين لرؤية بروز تأمل ترجمي يتعلق بالمجالات المتخصصة. يرى فان هوف (Van Hoof 1991) أن عام١٩٦٠هو تاريخ "أول مؤلف يعالج بنوع خاص مشكلات الترجمة غير الأدبية". يتعلق الأمر بكتاب جان مايو Jean Maillot الموسوم بعنوان *الترجمة العلمية والتقنية* (١٩٦٩)، الذي صدرت منه طبعة منقحة في عام ١٩٨١.

الترجمة والقومية

لقد حاول الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي إرنست رونان Ernest Renan (١٨٢٣-١٨٩٢) في محاضرته الشهيرة التي ألقاها بتاريخ ١١ مارس (آذار) ١٨٨٢في جامعة السوربون Sorbonne، والتي كانت بعنوان "ما الأمة؟"، حاول تعريف "الأمة الفرنسية" في سياق التنافس الشديد مع ألمانيا. يرى رونان أن المفهوم الفرنسي للأمة يقوم على "القبول، والرغبة الواضحة في التعبير عن متابعة الحياة المشتركة"، وبعبارة أخرى، على الرغبة في الانتماء لشعب ولمشاركته قيمه، وباختصار، على العيش المشترك على الأرض نفسها (انظر حق الأرض).

وعلى العكس من ذلك، يؤكد المفهوم الألماني الذي عبر عنه الفيلسوف فيخته Fichte (١٧٦٢-١٨١٤) منذ ١٨٠٨ في "خطاب إلى الأمة الألمانية"، معايير انتماء موضوعية مثل النسب المشترك، واللغة، والأرض. وقد تمخض منطقيا عن هذه المعايير مفهوم الجنسية الذي يقوم أوليا على صلة الرحم.

لقد أدى هذان المفهومان، من وجهة نظر ترجمية، إلى نقاشات صاخبة تتميز بتحديات رئيسة: على سبيل المثال، هل تشكل ترجمة عمل أجنبي إلى اللغة القومية تحقيرا أم إثراء؟ هل يمكن أن يفسد الأدب أو اللغة القومية بفعل ترجمة

الأعمال الأجنبية؟ إن هذه الأسئلة ليست منفصلة عن آثار كره الأجانب التي تلوث المجتمعات الغربية منذ انتصار القوميات في القرن التاسع عشر. ففي بعض الحالات، يمكن أن يذهب الأمر بعيدا فيتم التشكيك في إخلاص المترجم: أليس المترجم عميلا للأجنبي، أي "خائنا" لأنه يدخل قيما أجنبية في الثقافة القومية عندما لا يساعد العدو صراحة في المعركة؟

وعلى الرغم من الجهود التي يبذلها العديد من المفكرين وعلماء الترجمة، وفي مقدمتهم أنطوان بيرمان Antoine Berman (١٩٤٢-١٩٩١)، فإن مفهوم دور المترجم بوصفه وسيطا ثقافيا مكلفا بالتعريف "بغرابة" الآخر l'Autre من خلال أكثر صفاته إنسانية، ما يزال يعاني من عوائق لفرض نفسه، فالسياق الدولي الذي يتسم منذ قرن بحروب أيديولوجية ذات دلالة ثقافية لا يساعد على تجانس الأحاسيس، فالمترجم يخضع أكثر من أي وقت مضى لكل أنواع الضغوط في الداخل والخارج على السواء.

(٣,١٤) الترجمة البشرية في مقابل الترجمة الآلية

لقد تعددت الثورات التكنولوجية بعد الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، وفي مقدمة هذه الثورات الثورة المعلوماتية. فقد انطلق الباحثون الذين استسلموا للتفاؤل المفرط لتصميم آلة للترجمة رأت نماذجها الرائدة النور منذ عام ١٩٤٦ (Bouillon et Clas 1946). وقد كانت مبررات البحوث في الترجمة الآلية آنذاك تتمثل قبل كل شيء في سياق الحرب الباردة والكم المتزايد باستمرار من الوثائق المتخصصة المراد ترجمتها.

لقد قدم الفرنسي ليون دوستير Léon Dostert في عام ١٩٥٤أول برهان على الترجمة الإلكترونية، بفضل التعاون مع شركة IBM. ونشر جان بوليه Jean Poulet

في عام ١٩٥٧ كتاب *قواعد عامة لآلات الترجمة*. وأجرى إميل دولافني Émile Delavenay في عام ١٩٥٩تقييما حول *آلة الترجمة*. وتناول جورج مونان Georges Mounin في عام ١٩٦٤الموضوع من وجهة نظر لسانية في كتاب *آلة الترجمة: تاريخ المشكلات اللسانية*. إن هذا الكم من المطبوعات يدل على أهمية البحوث خلال المرحلة الأولى هذه من تاريخ الترجمة الآلية.

وبموازاة ذلك، نشهد الغليان نفسه في الدول الغربية الأخرى، ففي بريطانيا نشر بوث Booth مع باحثين آخرين كتاب *حل آلي للمشكلات اللسانية* (١٩٥٨) وكتاب آلة الترجمة (١٩٦٧). وأجرت شركة سيمنز Siemens في ألمانيا الاتحادية تجارب مشجعة. وأما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان عصر التطبيقات الطموحة، والمشاريع الخلاقة.

لكن هذا الغليان سرعان ما ضعف في مواجهة النتائج المخيبة للتطبيقات التي تم توضيحها. وقد حدث التحول في نهاية الستينيات من القرن العشرين، وذلك مباشرة بعد نشر تقرير ألباك ALPAC(٥) الانتقادي (١٩٦٦) الذي وضع حدا "لعصر المرامزة البسيطة". وقد عادت الآفاق الاعتباطية للبدايات منذ ذلك الوقت إلى حدود أكثر واقعية"(Bouillon et Clas 1993: 253). ونعلم منذ ذلك الوقت أنه لا يمكن أن تحل الآلة محل المترجم الإنسان في كثير من المجالات، وعدد كبير من النصوص: "بعد حماس البدايات، توجب علينا قبول أن الفائدة العملية للترجمة الآلية تبقى أمرا ينبغي البرهنة عليه، على الرغم من النتائج التجريبية المهمة " (Van Hoof 1991:86).

وقد توجهت البحوث منذئذ نحو الوسائل المساعدة على الترجمة التي تضع المترجم الإنسان في محور النظام بدلا من التفكير في الحلول محله. وقد تم الحصول على

---

(٥) (Automatic Language Processing Advisory Committee. المترجم).

نتائج حاسمة في مجال الترجمة بمساعدة الحاسوب (.T.A.O)[٦] بفضل الثورة المعلوماتية في العقود الأخيرة. وتقف مهنة المترجم اليوم على قدم المساواة مع المعلمة bureautique[٧] والمعلوماتية، لاسيما بفضل "محطات العمل"المخصصة للترجمة. وتقدم شركات متعددة الجنسيات مثل سيستران SYSTRAN أو ترادوسTRADOS وسائل مساعدة على الترجمة لا يستهان بها: برمجيات ترجمة آلية، واستخلاص المصطلحات، والقواميس الإلكترونية، وذاكرات الترجمة، ...إلخ، وهي وسائل تساهم في تحسن جودة تنفيذ الترجمات وسرعتها.

لقد رأى النور مجال بحثي وترجمي جديد في امتداد لهذه الثورة الترجمية: يتعلق الأمر بالترجماتيةtraductique . وقد تم نحت هذا المصطلح من كلمة "ترجمة" traduction وكلمة "معلوماتية" informatique[٨] للإشارة إلى مجموع نشاطات الترجمة التي تستخدم الحاسوب، سواء باعتباره بديلا أو مساعدا للمترجم. فبعد البدايات التي سببت نزاعا بين أنصار كل ما هو تكنولوجي والمدافعين عن الصنعة الترجمية، تعلم الفريقان التعايش بتفاهم باعتبارهما مسارين متكاملين للمجال العلمي نفسه.

---

(٦) (Traduction Assistée par Ordinateur، هي أحد أسلوبين في الترجمة، ويعتمد على التفاعل بين العنصر البشري (المستخدم) والحاسوب، الأمر الذي يتيح للمترجم التدخل في جميع مراحل الترجمة – قبل الترجمة أو بعدها أو أثناءها. وأما الأسلوب الآخر فهو الاعتماد كليا على الحاسوب، أي يقوم الحاسوب بالترجمة دون الحاجة إلى تدخل بشري وهو ما يسمي بالترجمة الآلية Traduction automatique. المترجم).

(٧) (المعلمة bureautique تطبيق المعلوماتية في الأعمال المكتبية. المترجم)

(٨) (هي الاسم الجامع لكل المواد والتقنيات المتعلقة ببرمجة الترجمة. وقد تم توليد هذا المصطلح قياسا على المعلوماتية (المعلومات+ ية). وتغطي الترجماتية الترجمة الآلية بمساعدة الحاسوب وكافة البرامج المعلوماتية المساعدة على الترجمة. المترجم).

(٣,١٥) الترجمة التحريرية في مقابل الترجمة الشفهية

لقد واكب توسع النشاط الترجمي في بداية القرن العشرين الانحسار المتنامي لنفوذ اللغة الفرنسية على الصعيدين الدولي والدبلوماسي. وازدادت قوة اللغة الإنجليزية منذ الحرب العالمية الأولى. وكان مؤتمر السلام في عام ١٩١٩ فرصة بالنسبة إلى بول مانتو Paul Mantoux (١٨٧٧-١٩٥٦) لتطبيق تقنية جديدة في الترجمة الشفهية تقوم على ترجمة الخطابات السياسية بطريقة تتبعية. ويُعد جان هيربير Jean Herbert، وجورج ماتيو Georges Mathieu، وأندريه و جورج كامنكير André et Georges Kaminker في فرنسا من بين الرواد الأوائل في الترجمة التتبعية. وأما في بريطانيا فتميز كل من إيفانز Evans ولويد Lloyd بالترجمة في المؤتمرات (Van Hoof 1991: 168).

لقد ساعد استخدام مكبرات الصوت والسماعات خلال انعقاد مؤتمر العمل الدولي في عام ١٩٢٧على تبني الترجمة الفورية بشكل نهائي. وتهدف هذه الترجمة إلى الاستجابة للطلب المتزايد للمؤسسات والمؤتمرات الدولية التي تستخدم عدة لغات عمل. وقد صدر في عام ١٩٥٢ لجان هيربير *كتاب المترجم الشفهي الوجيز*. وأما في عام ١٩٥٦ فقد صدر كتاب *تدوين الملاحظات في الترجمة التتبعية* بقلم جان-فرانسوا روزان Jean-François Rozan. كما صدر في عام ١٩٦٢كتاب فان هوف *الترجمة الشفهية: النظرية والتطبيق*. *وأما دانيكا* سيليسكوفتش Danica Seleskovitch وماريان لوديرير Marianne Lederer فقد أصدرتا في الربع الأخير من القرن العشرين عدة كتب، وأسستا ما عرف لاحقا باسم "مدرسة باريس": *المترجم الشفهي في المؤتمرات الدولية* (١٩٦٨)، و *الكلام، واللغات، والذاكرة*: دراسة تدوين الملاحظات في الترجمة التتبعية (١٩٧٥)، *والتأويل سبيلا إلى الترجمة* (١٩٨٤)[٩].

---

(٩) (عنوان الكتاب بالفرنسية *Interpréter pour traduire*، وقد نقلته مؤخرا إلى العربية الدكتورة فائزة القاسم وراجعه الدكتور حسن حمزة، وهو من إصدارات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩. المترجم).

وتعد جامعة جنيف، منذ عام ١٩٤١، أول جامعة تقدم تأهيلا متخصصا، وذلك في إطار مدرسة الترجمة التحريرية والترجمة الشفهية (ETI، سويسرا). وأما في فرنسا، فقد افتتحت المدرسة العليا للدراسات التجارية (HEC) في باريس قسما للترجمة التحريرية والترجمة الشفهية في عام ١٩٤٩، وتبعتها جامعة السوربون في عام ١٩٥٧بافتتاح المدرسة العليا للترجمة التحريرية والترجمة الشفهية (ESIT)، والمعهد الكاثوليكي في باريس بافتتاح المعهد العالي للترجمة الشفهية والترجمة التحريرية (Van Hoof 1991: 116). وأما بلجيكا، فقد أنشأت في عام ١٩٦٢مدرسة المترجمين الشفهيين الدوليين (EII) في مدينة مونس Mons.

أدت المأسسة المتباطئة للترجمة الشفهية إلى تأخر في البحوث والمطبوعات في هذا المجال. ولكن نموها السريع ساعد على عودة قوية للمترجمين الشفهيين خلال العقود الأخيرة، حتى أن بعض الباحثين استفاد من ذلك ليطالب باستقلال الترجمة الشفهية وانفصالها عن علم الترجمة.

(٤) تبين الوضع

يمتد تاريخ الترجمة على مدى عدة قرون من التأملات المختلطة والملاحظات المتباينة التي لا تتلاقى كليا أبدا، والتي تحمل مضامين نظرية عقدية متناقضة غالبا. يرى أنطوان بيرمان (Antoine Berman 1995: 40)، وهو أحد رواد علم الترجمة، "أن هذا الخطاب[...] مدهش من حيث ضآلة حجمه: عدد قليل من المؤلفات، وركام من الملاحظات، والرسائل، والمقدمات ...إلخ. وإذا قارنا هذه المادة اللغوية بالنصوص النقدية التي أنتجها الأدب، لنقل منذ القرن السادس عشر، فينبغي علينا أن نخلص إلى أن المترجمين مقلون جدا عندما يتكلمون عن نشاطهم".

يمكن مع ذلك تمييز مرحلتين أساسيتين. ولا جرم أن التأمل الترجمي كان موجودا منذ العصور القديمة حتى عصر التنوير، ولكنه يبقى خاضعا لاهتمامات دخيلة عليه، ومستوحيا من الدين، والسياسة، والأدب أو الفلسفة. ولم يبدأ هذا التأمل بالتحرر والمأسسة إلا مع بداية القرن التاسع عشر، وذلك بالحصول تدريجيا على استقلاله. وفرض نفسه في النصف الثاني من القرن العشرين من خلال مجموعة من المدارس، والنظريات وبرامج التأهيل الجامعي.

وقد حاولت خلال هذا الفصل المخصص لتاريخ الأفكار الترجمية توضيح التقابلات الرئيسة التي بني عليها التأمل النظري في الترجمة منذ العصور القديمة.

هناك، في الأصل، أسطورتان مؤسستان: أسطورة بابل وأسطورة *التوراة السبعينية*، اللتين توضحان أهمية الترجمة في المتخيل الإنساني منذ أسحق عهود التاريخ.

ولكن الترجمة تثير مشكلة عندما يكون موضوعها النصوص المقدسة، *والعهد القديم* في المقام الأول. وقد رأينا تطور إشكالية *"الاعتراض المسبق"*، لاسيما بخصوص النسخة اللاتينية من *التوراة* التي اعتمدت على النسخة اليونانية. وقد اعتبرت الترجمة عندئذ إما "رسالة مقدسة" أو تدنيسا" بحسب إمكانية ترجمة "السر الخفي" الإلهي أو استحالتها.

إن الطابع المهيمن للحضارة الإغريقية يفسر إلى حد كبير المكانة الدنيا التي تحتلها الترجمة في هذه الحضارة، ويعكس أيضا إدراكا غامضا لهذا النشاط الذي يعتبره الإغريق "خاصية" المنهزم الذي يخضع للغة المنتصر، والذي يسعى إلى نسخ نتاج عبقريته بترجمته إلى لغته الخاصة به.

بيد أننا نلاحظ عكس ذلك في روما القديمة حيث شهدت الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية نموا غير مسبوق. ولكن إلحاقها بفن الخطابة باعتبارها مجرد تمرين محاكاة

أدبي يؤكد التقابلات التي ظهرت بفضل الترجمة التوراتية، فاعتبار الترجمة أداة بلاغية جعل منها - لدى شيشرون وتلامذته- "فن ترجمة" يطغى عليه التكييف الحر.

لقد عزز هذا المنظور المتفرع ثنائيا عدة تقابلات ناجمة عن الفلسفة الثنائية: الكلمة في مقابل الفكرة، الألفاظ في مقابل المقاصد، إلخ. وقد اهتم القديس أوغستينوس saint Augustin (٣٨٩) على وجه الخصوص بـ"الأمانة" للأصل، وأيد بقوة تفوق المضمون على الشكل. ولكن معاصره القديس جيروم saint Jérôme (٣٩٥) اقترح حلا وسطا يوصي بموجبه بالأمانة للمعنى بالنسبة للنصوص المدنسة، والمراعاة الدقيقة للنصوص المقدسة. وبصفة عامة، بقي التأمل في الترجمة لمدة طويلة مرتبطا بالأطر القديمة. وكان ينبغي انتظار العصر الحديث لرؤية تطور تأمل نظري خال من التقابلات الكلاسيكية.

ونلاحظ إجمالا أن التمييز بين "الترجمة" و"الكتابة" حديث بما يكفي، إذ أن تاريخه يعود للعصر الحديث. وقد بقي مفهوم الوثيقة "الأصل" نفسه لفترة طويلة غامضا: كانت الترجمة تتم غالبا انطلاقا من ترجمة، وهكذا دواليك، من دون نظرة سيئة للموضوع. وكانت الترجمة تعتبر وسيلة للاطلاع على حضارات الماضي: إنها، كما عبر عن ذلك بيرمان (Berman 1984) تعبيرا جيدا، "أفق كل كتابة".

لم تبدأ أشكال أخرى من الترجمات الأقل "أدبية" بالظهور إلا في القرن الثامن عشر. والحقيقة أن التقدم العلمي والتقني هو الذي دشن الثورة الصناعية أولا، وأن الثورة التكنولوجية جاءت بعد ذلك. وقد دفعت هاتان الثورتان المترجمين إلى التخصص، وولدت نشاطات ترجمية جديدة ووسائل جديدة مساعدة على الترجمة. وقد قاد الحجم الكبير للوثائق المراد ترجمتها إلى إدخال المعلوماتية بشكل مكثف في حرفة المترجم، وعلى نمو البحوث التطبيقية في مجال الترجمة التحريرية والترجمة

الشفهية على حد سواء. ولهذ فإن علم الترجمة يمثل اليوم مجالا ممتازا للابتكار ولتداخل المجالات العلمية.

(٥) من أجل التعمق في الموضوع

-حول تاريخ الترجمة بعامة (بالفرنسية):

-Cary E.(1956), *La traduction dans le monde moderne*, Genève: Georg.

-حول تاريخ الترجمة بعامة (بالإنجليزية):

-Brower R.A. (1959), *On translation*, Cambridge: Harvard University Press.

-حول تاريخ الترجمة في الغرب (بالفرنسية):

-Van Hoof (1991), *Histoire de la traduction en occident: France, Grand-Bretagne, Allemagne, Russie, Pays-Bas*, Paris: Duculot.

-حول تاريخ الترجمة في الغرب (بالإنجليزية):

-Kelly L. (1979), *The True Interpreter: A History of translation Theory and Practice in the West*, New York: St. Martin's press.

-حول تاريخ الأفكار الترجمية:

-Ballard M. (1992), *De Cicéron à Benjamin, traducteurs, traductions, réflexions*, Lille: Presses Universitaires du Septentrion.

-حول الترجمة في فرنسا:

-D'Hulst L. (1990), *Cent ans de théorie française de la traduction. De Batteux à Littré (1748-1847)*, Lille, Presses Universitaires de Lille.

-حول الترجمة في ألمانيا:

-Lefevere A. (1977), *Translating Literature : The German Tradition from Lutter to Rosenzweig*, Amesterdam: Van Gorcum.

(٦) اختبر معارفك

أ) ما مدى ذكر النقاش الذي دار في العصور القديمة والعصور الوسطى في تاريخ الترجمة المعاصر؟

ب) ما العلاقات التي تقيمها الترجمة مع السياسة؟ أعط أمثلة تاريخية ومعاصرة.

جـ) ما العوامل التي تفسر النمو الكبير للترجمة التحريرية والترجمة الشفهية منذ الحرب العالمية الثانية؟

د) ما تأثير "هالة" اللغات على الترجمة؟ أعط أمثلة تاريخية ومعاصرة.

هـ) ما السمات التي تميز "المدرسة الفرنسية" للترجمة في القرن السابع عشر.

و) ما السمات التي تميز "المدرسة الألمانية " في العصر الرومانسي؟

ز) يقترح إتيان دوليه Etienne Dolet (١٥٤٠) في كتابه الوجيز عن الترجمة قاعدة ثالثة للترجمة الجيدة: "ينبغي على المترجم ألا يخضع للترجمة الحرفية، فالمترجم الذي يعمل بهذه الطريقة يفتقد الروح والذكاء". اشرح تحديات هذه القاعدة والنقاش الذي تثيره الترجمة الحرفية.